

ستُ دُرَرٍ

مِن أُصُولِ أَهْلِ الأَثَرِ

الطريق إلي الله
إخلاص الدين لله
التصفية والتربية
نيل السؤدد بالعلم
إتباع الكتاب والسنة علي فهم السلف الصالح
الرد علي المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لفضيلة الشيخ
عبد المالك بن أحمد بن المبارك رمضاني الجزائري



ست درر

من

أصـول أهـل الأثـر

الطبعة الأولى لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٥٦٦٤ / ٢٠٠٤م



٦ شارع عزيز فانوس ـ منشية التحرير ـ جسر السويس ـ القاهرة
هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨
E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com



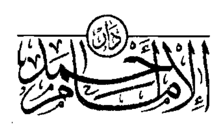
ست درر

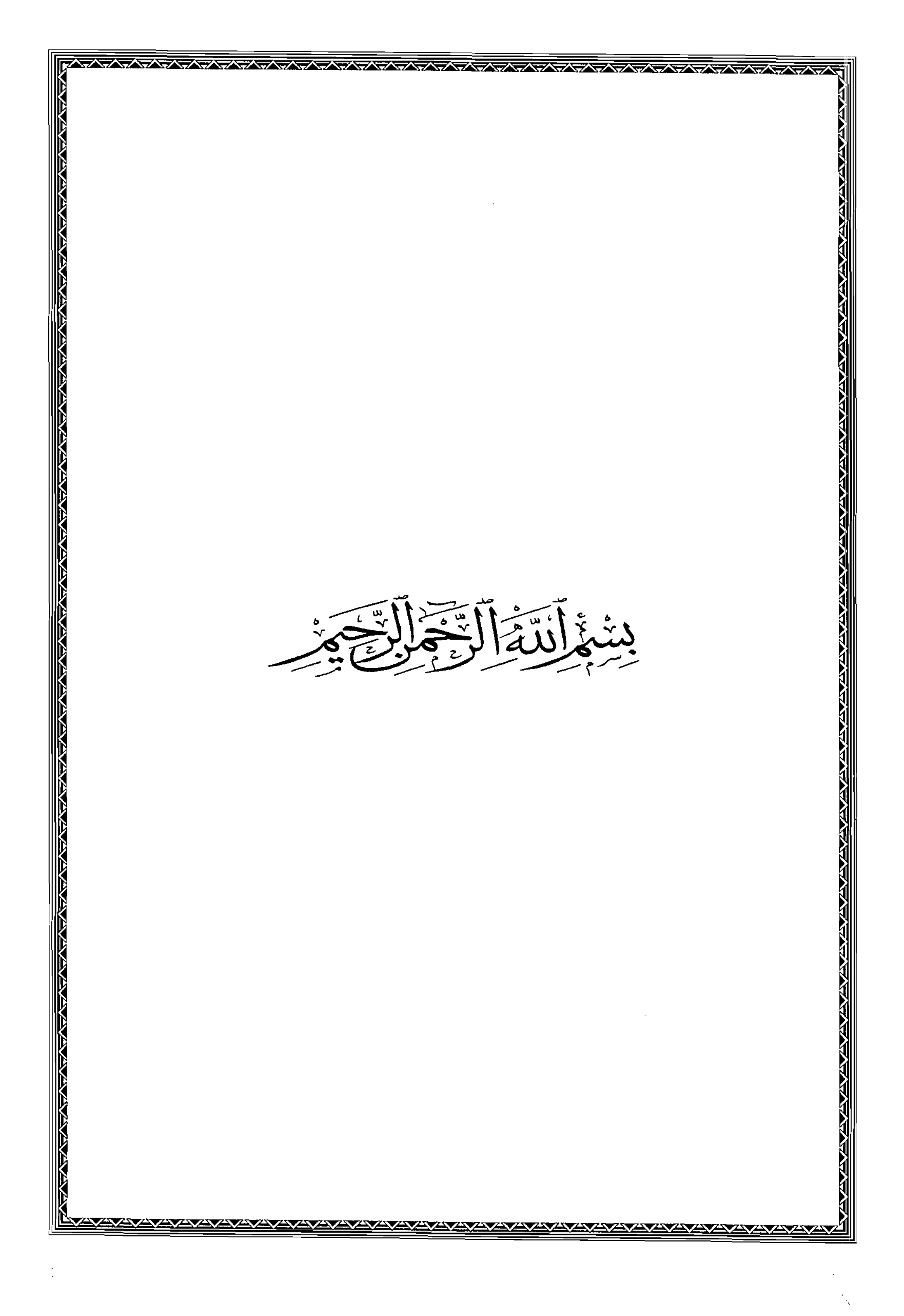
من

أصول أهل الأثر

تأليف

عبد المالك بن أحمد بن المبارك رمضاني الجزائري




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

*** تمهيد:**

إن الحمد للَّه، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمَّدًا عبده ورسوله.

*** أما بعد:**

فقد اقترح عليَّ بعضُ من اطَّلع على كتابِي: «**مدارك النَّظر فِي السياسة بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية**» أن أستلَّ منه مدخَلَه الذي ضمَّنته أصولًا ستةً لأهل السنة، وأن يُفرد بِمصنَّف لطيف يكون نشرةً تعريفية لمنهج السلف بِما لا يَسَع أحدًا الاختلافُ عليه، فمكثتُ سنوات لا أفعل شيئًا؛ رجاء أن أُصيب ممن هو أقدر عليه منِّي كفايةَ مؤنته؛ لأنَّنِي علمتُ أن نُخبةً من طلبة العلم الموقَّرين قام بشرحها فِي بعض الأقطار الإسلامية.

فلما اشتدَّ عليَّ الإلحاح، لاسيما مِمَّن لا يسعنِي ردُّه، استعنتُ باللَّه، وأخرجتُه كما هو مع شيء من الإيضاح، وقد كانت فِي صلب الكتاب المسمَّى أعلاه كما يلي:

الأصل الأول: الطريق واحد.

الأصل الثانِي: طريق الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

الأصل الثالث: نَيلُ السؤدد بالعلم.

الأصل الرابع: صِمام الأمان من الكفر والهزيمة باتِّباع الكتاب والسنة.

الأصل الخامس: الردُّ على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأصل السادس: التصفية والتربية.

ثُمَّ بدا لي أن أضيف إليها أصلًا آخر، ألا وهو «**إخلاص الدِّين للَّه**»؛ لأنه أصل

الأصول بلا ريب، وأدرجتُ الأصل الرابع الذي هو: «**صمام الأمان من الكفر والهزيمَة باتباع الكتاب والسنة**» تحت الأصل الثالث الذي هو: «نيل السؤدد بالعلم»؛ نظرًا لكونه ثمرة له، على ما أشار عليَّ به بعضُ الفضلاء، فكانت كما يلي:

الأصل الأول: إخلاص الدِّين للَّه.

الأصل الثانِي: الطريق واحد.

الأصل الثالث: طريق الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

الأصل الرابع: نيلُ السؤدد بالعلم.

الأصل الخامس: الردُّ على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأصل السادس: التصفية والتربية.

وقد كنتُ كتبتُ هذه الأصول لعرض منهج أهل السنة والجماعة الذين هم أصحاب الحديث وأتباع الأثر والسلفيُّون.

ذلك المنهج الذي ينبغي التركيز عليه فِي القيام على النفس بالقسط، ودعوة الناس إليه؛ لأنَّ به بايَنَ أهلُه غيرَهم من المخالفين، وبه بَنوا صرحَ هذا الدِّين عزيزًا شامِخًا فِي عليائه.

ولَمَّا رأيتُ المخالفَ قد ظلم هذا المنهج ظلمًا بالغًا، وأضفى عليه من الشناعات لباسًا سابغًا، حَتَّى توارَى نورُه بِحجاب، عمَّن لَم يأخذ من العلم بنصاب، عزمتُ على إسداء النصح للناس عامة، وللمخالف خاصة.

وهذا الأخير:

* إما مستوحِشٌ من منهج أهل الحقِّ؛ لجهله به، وجهله بحجَّته الدامغة، فإذا عرفه استأنس به، وركب متنه ولَم يعقِّب.

* وإمَّا مُثبِّطٌ عنه، جالِب عليه بخيله ورجله، صادٌّ عنه بِماله وسلطانه؛ لغلبة الهوى عليه، مع معرفته بقوَّة حجَّته، وسرعة تأثيره فِي الأمم والأفراد، فإذا جاءته البيِّنةُ بعد البيِّنَة، والتذكير بعد التذكير، ثُمَّ تنكَّبه، استبان الناس تلبيسه، واكتشفوا عوار دعايته،

إلَى أن يقصمه اللَّه فيُستراح من شرِّه، قال اللَّه تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وسبب استلال هذا البحث من أصله: «**مدارك النظر فِي السياسة**» وجعله كتابًا مستقلًّا، هو أنَّني تعرَّضتُ فِي الكتاب المسمَّى آنفًا لبعض الدعوات بالنَّقض، ولرءوسها بالنَّقد، ونظرًا لكون الناس معادن، وأن لمناهج تلك الدعوات محاضن! يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصَّغير، جرَّدتُ بحثي هذا عن تسمية المخالف، حَتَّى لا يحول ذلك دون استفادة متحزِّبة هذه المَحَاضن من الكتاب، وأنا بقَدر استفادة الناس منه رجوتُ من اللَّه الثواب.

وينبغي لفت النظر إلَى أنَّني لا أفعل هذا موافقةً لقوم ضاق عطنهم عن قراءة كتب الردود، الذين صدَّهم عن الحق جنونُهم بمتبوعيهم كلَّ الصدود.

كلَّا! فإنَّنا لا نزال نأثر عن سلفنا الصالح ومن تبعه بإحسان إلَى يومنا هذا انتقادَهم الدعوات المنحرفة عن السنة، ولا يستنكفون عن تعريتها بإقامة حُجَّة السُّنَّة والكتاب، وذكر أصحابِها بالأسماء والكُنَى والألقاب.

ومن ظنَّ أنه حين يُعرض عن تسميتها مطلقًا يُحسن صنعًا؛ فقد أزرى بصنيع المهاجرين والأنصار والتابعين لَهم وأتباع التابعين على مرِّ الدهور واختلاف الأمصار، الذين عُنُوا بالجرح والتعديل، ولَم يتورَّعوا عن ذكر آلاف الرواة بأسمائهم وأنسابِهم، ولا عن وصف بعضهم بـ: الضعيف! والمنكر! والكذاب! والدجال!..

لِمَاذا سَمَّوهُم؟

الجواب: ليحذرهم الناس على دين اللَّه تعالى.

وعلى كلِّ حال، فإنَّ تتمَّة هذا المبحث يجدها القارئ عند أصلَي: «**الرد على المخالف**»، و«**التصفية والتربية**».

هذا وقد نسبتُ هذه الأصول إلَى أهل الأثر كما هو عنوان الكتاب؛ تنبيهًا للقارئ على أنَّ الدِّين الحق إنَّما هو اقتفاء أثر من سبق، ممن جاء التَّنويه عليه بالذِّكر الجميل، على لسان الصادق المصدوق، بل وفِي محكم التنزيل، لا علم الكلام الذي ورثه

المتأخِّرون من أهل الكفر والزندقة كالفرس واليونان.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهلُ الفقه والآثار من جميع الأمصار أنَّ أهلَ الكلام أهلُ بدع وزيغ، ولا يُعدُّون عند الجميع فِي جميع الأمصار فِي طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهلُ الأثر والتفقُّه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم»[١].

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو كان الكلام علمًا لتكلَّم فيه الصحابةُ والتابعون، كما تكلَّموا فِي الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل»[٢].

وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: «إن فلانًا صنَّف كتابًا يردُّ فيه على المبتدعة. قال: بأيِّ شيء؟ بالكتاب والسنة؟ قال: لا، لكن بعلم المعقول والنظر. فقال: أخطأ السنة، وردَّ بدعة ببدعة»[٣].

وقال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كلَّ فريق من المبتدعة يدَّعي أن الذي يعتقده هو ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ؛ لأنَّهم كلهم يدَّعون شريعة الإسلام، ملتزمون فِي شعائرها، يرون أنَّ ما جاء به مُحمَّد ﷺ هو الحق، غير أنَّ الطرق تفرَّقت بِهم بعد ذلك، وأحدثوا فِي الدِّين ما لَم يأذن به اللَّه ورسوله، فزعم كلُّ فريق أنه هو المتمسِّك بشريعة الإسلام، وأنَّ الحق الذي قام به رسول اللَّه ﷺ هو الذي يعتقده وينتحله، غير أن اللَّه تعالى أَبَى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلَّا مع أهل الحديث والآثار؛ لأنَّهم أخذوا دينَهم وعقائدهم خلفًا عن سلف، وقرنًا عن قرن، إلَى أن انتهوا إلَى التابعين، وأخذه التابعون عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وأخذه أصحاب رسول اللَّه ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ، ولا طريق إلَى معرفة ما دعا إليه رسول اللَّه ﷺ الناسَ من الدِّين المستقيم والصراط القويم إلَّا هذا الطريق الذي سلكه أصحابُ الحديث.

وأما سائر الفرق فطلبوا الدِّين لا بطريقه؛ لأنَّهم رجعوا إلَى معقولهم وخواطرهم وآرائهم، فطلبوا الدين من قبله، فإذا سمعوا شيئًا من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولِهم، فإن استقام قبلوه، وإن لَم يستقم فِي ميزان عقولِهم ردُّوه، فإن اضطروا إلَى

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٢).

(٢) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي (ص: ٥٧)، والأمر بالاتِّباع له (ص: ٧٠).

(٣) صون المنطق والكلام للسيوطي (ص: ١٣١)

قبوله حرَّفوه بالتأويلات البعيدة والمعاني المستنكرة، فحادوا عن الحق، وزاغوا عنه، ونبذوا الدِّين وراء ظهورهم، وجعلوا السنَّةَ تحت أقدامهم، تعالى اللَّه عمَّا يصفون.

وأمَّا أهل الحقِّ، فجعلوا الكتاب والسنة إمامهم، وطلبوا الدِّين من قبلهما، وما وقع لَهم من معقولِهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنة، فإن وجدوه موافقًا لَهما قبلوه، وشكروا اللَّه ﷻ حيث أراهم ذلك ووقفهم عليه، وإن وجدوه مُخالفًا لَهما تركوا ما وقع لَهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتُّهمة على أنفسهم؛ فإنَّ الكتاب والسنة لا يهديان إلَّا إلَى الحق، ورأيُ الإنسان قد يُري الحقَّ، وقد يري الباطل»[1].

هذا وقد عمدتُ إلَى تخريج الآثار السلفية مع ذكر درجتها من حيث الصحة وعدمها؛ وذلك إفحامًا للمخالف لأصول سلفنا الصَّالح، حَتَّى لا أدع مجالًا لردِّ الحقِّ بزعم عدم ثبوت دليله، وإلَّا فإنَّه قد جرى عملُ أهل العلم على التساهل فِي إيراد الآثار غير المرفوعة، ما دامت جاريةً على الأصول الشرعية المعروفة.

واللَّه أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه، تابعًا للحق الذي بعث به نبيَّه ﷺ.

كتبه

عبد المالك بن أحمد رمضاني

المدينة النبوية

في ٢٩/ رجب/ ١٤١٩هـ

---

(١) الانتصار لأهل الحديث (ص: ٤٣-٤٥).

الأصل الأول:
إخلاص الدين للّه



الأصل الأول: إخلاص الدين لله

إخلاص الدِّين للَّه هو أصل الدِّين وقطبُه الذي تدور عليه رحاه، وهو التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسلَ، وأنزل به الكتب، وإليه دعا الأنبياءُ -عليهم الصلاة والسلام-، وعليه جاهدوا، وبه أمروا، وفيه رغَّبوا.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البينة: ٥].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فهذا التوحيد هو بِمثابة الأساس من البنيان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد علوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدَّة الاعتناء به؛ فإنَّ علوَّ البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان . . .

فالعارف هِمَّتُه تصحيحُ الأساس وإحكامُه، والجاهلُ يرفع فِي البناء من غير أساس، فلا يلبث بنيانُه أن يسقط؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ [التوبة: ١٠٩]»[(١)].

قلت: وذلك أنَّ هذه الآية نزلت فِي المنافقين الذين بنوا مسجدًا للصلاة فيه، لكنَّهم لما أتوا بِهذا العمل العظيم الفضيل وقلوبُهم خِلوٌ من الإخلاص لَم ينفعهم ذلك شيئًا، بل انهار بِهم فِي نار جهنَّم كما فِي الآية.

---

(١) الفوائد (ص: ٢٠٤- عرموش).

ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهذا الأساس أمران:**

- **الأول:** صحة المعرفة باللّه وأمره، وأسمائه وصفاته.

- **والثاني:** تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسَّس العبدُ عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناءُ ما شاء، فأَحْكِمِ الأساسَ، واحفظ القوَّة، ودُم على الحِميَة...»[1].

* **والتوحيد بِمثابة الجذور من الشجرة.**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **تحت عنوان (شجرة الإخلاص):**

«السَّنة شجرةٌ، والشهور فُروعُها، والأيَّام أغصانُها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثَمرُها، فمن كانت أنفاسه فِي طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت فِي معصية فثمرته حنظل.

إنَّما يكون الجَداد[2] يوم المعاد، فعند الجداد يتبيَّن حُلوُ الثمار من مرِّها.

والإخلاص والتوحيد شجرة فِي القلب، فروعُها الأعمال، وثمرُها طيبُ الحياة فِي الدنيا والنعيم المقيم فِي الآخرة، وكما أنَّ ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والإخلاص فِي الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء شجرة فِي القلب، ثمرُها فِي الدنيا الخوفُ والغمُّ وضيق الصدر وظلمةُ القلب، وثمرها فِي الآخرة الزَّقُّوم والعذاب المقيم، وقد ذكر اللّه هاتين الشجرتين فِي سورة إبراهيم»[3].

قلت: يريد قول اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ

(١) الفوائد (ص: ٢٠٤).
(٢) الجَدَاد: قطف الثمر.
(٣) الفوائد (ص: ٢١٤).

﴿ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]. وفيها دليل واضح على أن الإصلاح يبدأ بالتوحيد، وينتهي بالتوحيد، ويركِّز فيه بين ذلك على التوحيد.

ولَمَّا كان التوحيد بِمثابة الأساس من البنيان، والجذور من الشجرة، كان أول أَمرٍ يُصادف الناس عند افتتاحهم للمصحف من بدايته، وذلك هو قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١](١).

ثُمَّ بعد هذا مباشرة النهي عمَّا يُضاد التوحيد، ألا وهو الشرك؛ وذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وهذه فائدة جليلة؛ لأن اللَّه ﷻ لَم يأمرنا بعبادته فحسب، بل ونَهانا أيضًا عمَّا ينقض ذلك، ألا وهو عبادة غيره، فقلِّب النَّظر فِي كتاب ربِّك تجده حُكمًا مطَّردًا، فمنه قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ومنه قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

ومنه قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].

قال الشيخ مبارك الميلي -أمين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «فلَم يَكتَفِ فِي الشهادتين بالتوحيد المُجَرَّد، حَتَّى صرَّح بنفي التعدُّد، وحصر التشريع فِي شخص المرسَل بالتبليغ»(٢).

والشرك هو أُولَى المُحَرَّمات الَّتِي ينهى اللَّه عنها، كما فِي قوله -جلَّ وعلا-: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآية.

وأولُ وصيَّة قدَّمها لقمان لابنه أن قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) كان العلاَّمة حماد بن مُحمَّد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنبِّهنا على هذه الفائدة العظيمة.

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (ص: ٢٠).

واهتمامات الناس تتفاوت، وإنَّما تُعلم منهم عند حشرجة الروح فِي وصيَّة الميِّت للحيِّ.

فمنهم من يوصي زوجته بماله، ومنهم من يوصي حبيبَه بوظيفته وسلطانه، ومنهم من يوصي ولدَه بإخوانه . . .

وأفضلهم من يوصي العبدَ بربِّه، ولذلك كان التوحيدُ وصيةَ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- عند موتِهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣][1].

ولِهذا كان الدعاة إلَى التوحيد أفضل الدعاة وأشرفهم؛ لأنَّ الدعوة إلَى التوحيد هي دعوة إلَى أعلى درجات الإيمان، فعن أبِي هريرة عن النَّبِي ﷺ قال: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستون شعبة، فأفضلها لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان**»[2].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد نبَّه ﷺ على أنَّ أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشُّعب إلَّا بعد صحَّته»[3].

قلت: بل هذه الشُّعَب لا تنبت فِي قلب امرئ، ولا تثمر على جوارحه إلَّا بحسب ما قام بالعبد لهذه الكلمة الطيِّبة من معان.

ولأنَّ إصلاح التوحيد من الدِّين بِمثابة إصلاح القلب من الجسد؛ ففي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألا وإن فِي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب**»[4].

وفيه دليل واضح على أنَّ إصلاحَ التوحيد -الذي ينطلق أصلُه من القلب- هو أصلُ

(١) انظر: تخريج الوصايا من خبايا الزوايا لصديق حسن خان (ص: ٧٤).
(٢) رواه مسلم (٥٨).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٨٠- ط دار أبِي حيان).
(٤) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

كلِّ إصلاح وأعظمه.

وعلى هذا، فإنَّ جميع الدعوات القائمة على دعوى الإصلاح، والَّتِي لا تركِّز على التوحيد، ولا تنطلق منه، يصيبُها من الانحراف بحسَب بُعدها من هذا الأصل العظيم، كالذين أفنوا أعمارهم فِي إصلاح معاملات الخَلقِ فيما بينهم، (ومعاملتُهم) للخالق -أي: معتقدهم فيه- مجانب لهدي السلف الصالح.

أو كالذين أفنوا أعمارهم فِي مصاولة أنظمة الحكم بغية إصلاح الناس من طريقها، أو بِمعالجة أنواع من السياسات للانقضاض على سلطانِها، ولا يكترثون لفساد عقيدتِهم وعقيدة مدعُوِّيهم!

فكيف إذا كانوا -لأسباب حزبية- يعتبون على الدعاة إلَى التوحيد بزعم أن ذلك يُضيِّع الوقتَ على أمة قد تكالب عليها الأعداء من كلِّ مكان! ويُشنِّعون على المدافعين على جَناب التوحيد بزعم أنَّ ذلك يفرِّق المسلمين ولو لَم يجمعهم إلَّا عبادة الأوثان! ويُسمُّون الذبَّ عن حق اللَّه بغير اسمه للتنفير منه، فيقولون: «مهاترات كلامية!»، أو «مناقشات بيزنطية!!» نعوذ باللَّه من سخطه.

هذا ناهيك عمَّن يدعو إلَى عقيدة فاسدة، ويُشنِّع على مُخالفيه، فإنَّه لا مجال للتعرُّض له هاهنا؛ لأنَّ أساسه فاسد.

ولِهذا كان النَّبِيُّ ﷺ يؤكِّد على الدعاة الاهتمام بِهذا الأمر والبدء به، فعَن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلَى اليمن: **«إنَّك ستأتِي قومًا أهلَ كتاب، فإذا جئتهم فادعُهم إلَى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه، وأن مُحمَّدًا رسول اللَّه،** -وفِي طريق:- **فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه،** -وفِي أخرى: **أن يوحِّدوا اللَّه، فإن هم أطاعوك لذلك،** -وفِي رواية: **فإذا عرفوا اللَّه، فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم خمس صلوات فِي كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك بذلك، فإيَّاك وكرائم أموالِهم، واتَّق دعوة المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين اللَّه حجاب»**[1].

(١) رواه البخاري (١٤٥٨، ١٤٩٦)...، ومسلم (٢٩، ٣٠).

وهذا الحديث العظيم لَم يترك لمنتصب للدعوة خيارًا، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وما بال الناس يعجبون من هذه الأولية، وحقُّ اللَّه فِي أن يُعبد وحده أحقُّ ما اشرأبَّت إليه الأعناق، ولهجت به الألسن؟!

فهذا حقُّ اللَّه الخالص، فكيف هان على أرباب المناهج الدعوية اليوم؟! أليس حقُّ اللَّه أحقَّ ما فتحت له الأبواب، وفُسحت له الرحاب؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوحيد مفتاح دعوة الرسل...». وذكر حديث معاذ السابق[1].

وهو دعوتُهم جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-، فلا وسَّع اللَّه صدرًا ضاق بذلك ذرعًا!

قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]....

وهكذا مهما اختلفت الأمم، وتباينت مشاكلُها، فإنَّ الدعوة إلَى التوحيد هي الأصل، سواء كانت مشكلتهم اقتصادية كما فِي أهل مدين، أو كانت خُلُقية كما فِي قوم لوط -عليه الصلاة والسلام-.

ولست بحاجة إلَى أن أقول: أو كانت سياسية؛ لأن جميع هؤلاء الشعوب لَم

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٣).

يكونوا يُحكَمون بِما أنزل اللَّه.

ولا يجوز أن يخبو نورُ هذه الدعوة المباركة زمنًا ما بزعم استتباب التوحيد فِي قلوب الناس، ألَم تسمع جؤار إمام الحنفاء الموحِّدين إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام-، وقد خاف على نفسه الشرك، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

قال مغيرة بن مِقسَم: «كان إبراهيم التيمي يقصُّ ويقول فِي قصصه: من يأمن من البلاء بعد خليل اللَّه إبراهيم حين يقول: رب واجنبنِي وبنِي أن نعبد الأصنام؟!»(١).

قال الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ التنديد بالأصنام وهو وحيد.

ولا ذهل عنه وهو مَحصور بالشِّعب ثلاث سنوات شديدات.

ولا نَسِيَه وهو مُختف فِي هجرته، والعدوُّ مشتدٌّ فِي طلبه.

ولا قطع الحديث عنه وهو ظاهر بِمدينته بين أنصاره.

ولا غلق باب الخوض فيه بعد فتح مكة.

ولا شُغل عنه وهو يُجاهد وينتصر، ويكرُّ ولا يفرُّ.

ولا اكتفى بطلب البيعة على القتال عن تكرير عرض البيعة على التوحيد ونبذ الشرك.

وهذه سيرته المدوَّنة، وأحاديثه المصحَّحة، فتتبَّعها تجد تصديق ما ادَّعينا، وتفصيل ما أجملنا»(٢).

ثُمَّ هذا رسول اللَّه ﷺ يَبلغه -أيام قوة التوحيد وعزِّ الإسلام- أن صنَمًا يُعبد باليمن يدعى ذو الخَلَصة، فيقضُّ ذلك مضجعه، ويغتمُّ له قلبه، فيُرسل إليه واحدًا من أهل اليمن، قال جرير بن عبد اللَّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**ألا تُريحُني من ذي الخَلَصة؟** قلت: بلى. فانطلقت فِي خمسين ومائة فارس من أحمس -وكانوا أصحاب

(١) رواه ابن جرير فِي تفسيره (٧/ ٤٦٠- ط دار الكتب العلمية).

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (ص: ١٩).

خيل-، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ، فضرب يده فِي صدري حَتَّى رأيتُ أثر يده فِي صدري، وقال: **اللَّهم ثَبِّته، واجعله هاديًا مهديًّا**. قال: فما وقعتُ عن فرس بعدُ! قال: وكان ذو الخَلَصة بيتًا باليمن لخثعم وبَجيلة، فيه نُصُبٌ تُعبد، يقال له: الكعبة. قال: فأتاها فحرَّقها بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جريرٌ اليمن كان بِها رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رسولَ رسولِ اللَّه ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عُنُقك، قال: فبينما هو يضربُ بِها؛ إذ وقف عليه جرير، فقال: لَتَكسِرَنَّها، ولتشهدنَّ أن لا إله إلا اللَّه، أو لأضربن عنقك. قال: فكسرها وشهد، ثُمَّ بعث جرير رجلًا من أحمس يُكنى أبا أرطاة إلَى النَّبِي ﷺ يُبشِّره بذلك، فلمَّا أتى النَّبِي ﷺ قال: يا رسول اللَّه! والذي بعثك بالحقِّ ما جئتُ حَتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب[1]، قال: فبَرَّك النَّبِيُّ ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرَّات»[2].

فائدتان:

١- **قال ابن حجر** عند قول رسول اللَّه ﷺ: «**ألا تُريحُني**»: «المراد بالراحة راحة القلب، وما كان شيءٌ أتعب لقلب النَّبِي ﷺ من بقاء ما يُشرك به من دون اللَّه تعالى»[3].

٢- كان من عادته ﷺ إذا أَلَحَّ فِي الدعاء دعا ثلاثًا، كما جاء عن ابن مسعود وغيره، وهاهنا دعا النَّبِي ﷺ خَمسًا لمعنى اقتضى ذلك، وهو أنَّ جناب التوحيد أعظم ما دُعي له ونُصر، فافهم![4].

فكيف استراحت قلوبُ دعاةٍ يعلِّمون الناسَ الزهدَ أو الأخلاقَ أو السياسة أو غيرها فِي مساجد بُنيت على أضرحة؛ ولا يُحرِّكون ساكنًا، بل ربَّما تَحرَّك ساكنٌ من غيرهم غيرةً على جناب التوحيد، فقاموا مشاغبين: يفرِّق الأمة! متسرِّعٌ وليس بحكيم! سَلِم منه الشيوعيون ولَم يَسلَم منه الصالحون حَتَّى وهم موتى . . . !

(١) المراد أنَّها صارت مثل الجمل المطليِّ بالقطران من جربه، إشارة إلَى أنَّها صارت سوداء لما وقع فيها من التحريق، قاله الخطابِي. فتح الباري (٨/ ٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤٣٥٥-٤٣٥٧)، ومسلم (١٣٦-١٣٧) وغيرهما.

(٣) الفتح (٨/ ٧٢).

(٤) انظر: الفتح (٨/ ٧٤).

فأين الإخلاص؟! وأين هم أهلُه؟! وأين الذين جعلوا غضبَهم يشتدُّ بقدر غضب اللَّه؟! فقد قال رسول اللَّه ﷺ: **«اللَّهم لا تَجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضبُ اللَّه على قوم اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد»**[(١)].

إن الولاء للَّه ﷻ يعني أن تغضب لغضبه، وترضى لرضاه، وهذا التوحيد الذي تُوالِي فيه، وهذا الشرك الذي تُعادي فيه، ينبغي أن يصحبك طول حياتك.

ومهما بلغت الأمة من الوعي فيه والاستجابة له مبلغ الكمال؛ فإنَّ النقصان واردٌ على البشر جدًّا، وشرُّ النقصان نقصان الإخلاص واضمحلال التوحيد، ولذلك لَم يسكت النَّبِيُّ ﷺ عن التنديد بالشرك حَتَّى فِي أُخريات أيامه، وقد بلغت الأمةُ آنذاك أوجَ قوَّتِها فِي توحيد ربِّها ووحدة صفِّها . . .

فعن جُندب بن عبد اللَّه البجلي ؓ قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: **«إنِّي أبرأ إلَى اللَّه أن يكون لي منكم خليلٌ؛ فإن اللَّه قد اتَّخذنِي خليلًا، كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنتُ متَّخذًا من أمَّتِي خليلًا اتَّخذتُ أبا بكر خليلًا، ألَا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد، فإنِّي أنهَاكم عن ذلك»**[(٢)].

ولا يزال أئمةُ الدِّين يُركِّزون على هذه الدعوة المباركة، ويحثُّون الناس على أن يجتمعوا على ما كان عليه السلفُ الصالح فِي:

١- اللَّه ﷻ.
٢- وملائكته -عليهم الصلاة والسلام-.
٣- وكتبه.
٤- ورسله -صلى اللَّه عليهم وسلم-.
٥- واليوم الآخر.
٦- والقدر خيره وشرِّه.

وسمَّوا هذه الستة: **أصول الدِّين**.

---

(١) رواه مالك (٤١٤)، وعبد الرزاق (١/ ٤٠٦)، وابن سعد (٢/ ٢٤٠-٢٤١)، وصححه ابن عبد البر فِي التمهيد (٥/ ٤٢)، والألباني فِي تحذير الساجد (ص٢٦).
(٢) رواه مسلم (٢٣).

توحيد اللَّه

لقد استقر الأمر عند أئمَّة الهدى -بعد الاستقراء التام لنصوص الكتاب والسنة- على أنَّه لَم يعرف اللَّه المعرفة الَّتِي تنجيه من العذاب الأليم يوم القيامة من لَم يوحِّد ربه فِي ربوبيَّته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ فكلٌّ من قصَّر فِي قسم من هذه الأقسام الثلاثة لَم يخلص الدِّين للَّه.

توحيد الربوبية

وهو يعني إفراد اللَّه سبحانه بأفعاله؛ لأنه الخالق الرازق المدبِّر لخلقه، المربِّي لَهم بِما يغذوهم من نعمه، والإيمان بسائر أفعاله سبحانه، قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وهذا القسم من التوحيد لا ينفع صاحبَه عند ربِّه إلَّا إذا هداه إلَى القسمين الآخرين: «الألوهية» و«الأسماء والصفات»؛ لأنَّ اللَّه أخبرنا أن المشركين عَرَفوا اللَّه فِي ربوبيَّته، فلم ينفعهم ذلك؛ لأنَّهم لَم يُفردوه بالعبودية فقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو أنْجَى هذا التوحيد وحده -يعني: الربوبية- لأنجى المشركين؛ والشأن فِي توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحِّدين»[1].

توحيد الألوهية

وهو يعنِي إفراد اللَّه بالعبادة؛ لأنه لا يجوز أن يُعبد إلا المتفرِّد بِما سبق ذكره، فلا يُصلَّى ولا يُدعى ولا يُذبح إلا له عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُطاف إلَّا ببيته، ولا يُستغاث بِميِّت ولا غائب، ولا يُتوكَّل إلَّا على من له الخَلق والأمر سبحانه، قال اللَّه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٧).

﴿وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولا يُحبُّ غيرَه كحبِّ اللَّه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وترى المشرك يُكذِّبُ حالُه وعملُه قولَه؛ فإنَّه يقول: لا نُحبُّهم كحب اللَّه، ولا نسوِّيهم باللَّه. ثُمَّ يغضب لَهم ولحرماتِهم -إذا انتهكت- أعظم مِمَّا يغضب للَّه! ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللَّهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنَّهم الباب بين اللَّه وبين عباده، فإنَّك ترى المشرك يفرح ويُسَرُّ، ويَحنُّ قلبه، وتَهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لَهم والموالاة، وإذا ذكرتَ له اللَّه وحده، وجرَّدت توحيده لَحِقَته وحشةٌ وضيق وحرجٌ، ورماك بنقص الإلهية الَّتِي هي له، وربَّما عاداك»[1].

قلت: قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال اللَّه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

ومن الفتوحات الَّتِي فتح اللَّه بِها على ابن القيم عند هذه الآية أنه قال: «فالمشرك إنَّما يتَّخذ معبودَه لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفعُ لا يكون إلَّا مِمَّن فيه خصلةٌ من هذه الأربع:

- إمَّا مالك لِمَا يريد عابدُه منه.

- فإن لَم يكن مالكًا؛ كان شريكًا فِي الملك.

- فإن لَم يكن شريكًا له؛ كان له معينًا وظهيرًا.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤١-٣٤٢).

- فإن لَم يكن معينًا ولا ظهيرًا؛ كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتِّبًا، منتقلًا من الأعلى إلَى ما دونه؛ فنَفَى المِلك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة الَّتِي يظنّها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بِهذه الآية نورًا وبرهانًا ونَجاة، وتَجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادِّه لمن عقلها»[١].

قلت: وكون المشرك لا نصيب له فِي شفاعة الشافعين معلوم من نصوص كثيرة، منها قول النَّبِيِّ ﷺ لأبِي هريرة وقد سأله: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول اللَّه؟ قال: **أسعد الناس بشفاعتِي من قال: لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه**»[٢].

نتيجة الإعراض عن توحيد المرسلين

قال الشيخ مُحمَّد خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن العجيب أن هؤلاء الأشاعرة يرون أن أخصَّ خصائص الألوهية هو الانفرادُ بالخلق والاختراع!! . . . ومعلوم أن الانفراد بالخلق هو توحيدُ الربوبية الذي كان يقرُّ به المشركون، أما التوحيدُ الأهمُّ والأعظم -وهو توحيد الألوهية- فإنَّهم لا يهتمُّون به، ولا يوجد له ذكرٌ فِي كتبهم، ولعلَّ هذا هو السرُّ فِي انخراط كثير منهم فِي بدع التصوف، وإقرارهم للوسائل الشركية الَّتِي تُرتكبُ عند أضرحة المشايخ المقبورين!»[٣].

قلتُ: وهذه ملاحظة عالِم أزهري خبير بالقوم، فاذكر ذلك!

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).
(٢) رواه البخاري (٩٩).
(٣) دعوة التوحيد (ص: ٢٣١).

توحيد الأسماء والصفات

وهو يعني الإيمان بكلِّ ما وصف اللَّه سبحانه به نفسه وَسَمَّى، وأنه لا يساميه فيها أيّ عظيم، وكذا تنزيهه عن كلِّ عيب؛ لأنه سبحانه قد تفرَّد بنعوت الجلال والكمال، وتقدَّس عن صفات النَّقص والمثال، وعلى هذا يجب على كلِّ مسلم أن يثبت لربِّه جميع ما وصله مِمَّا أثبته لنفسه فِي كتابه، أو على لسان أعرف الخلق به رسوله مُحمَّد ﷺ ثبوتًا يليق به سبحانه؛ لأنه لا شبيه له ولا سَمِيَّ؛ وهو المخبر عن نفسه قائلًا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

واللَّه سبحانه قد تعرَّف إِلَى خلقه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا الَّتِي جاء ذكرها فِي كتابه وسنة رسوله ﷺ، ومن تدبَّر ذلك عرف ربًّا قيُّومًا بنفسه، مقيمًا لغيره، غنيًّا عن كلِّ ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، مستوٍ على عرشه فوق جميع خلقه، يرى ويسمع، ويرضى ويغضب، ويُحبُّ ويُبغض، ويدبِّر أمر مملكته، وهو فوق عرشه متكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ، يرسل رسله إِلَى أقطار مملكته بكلامه الذي يُسمعه من يشاء من خلقه، وأنَّه قائم بالقسط، مُجازٍ بالإحسان والإساءة، وأنه حليمٌ غفور شكورٌ جوادٌ مُحسنٌ، موصوفٌ بكلِّ كمال، منزَّهٌ عن كلِّ عيب ونقص، وأنه لا مثلَ له، ويشهد حكمته فِي تدبير مملكته، كيف يقدِّر مقاديره بمشيئته، غير مضادة لعدله وحكمته، وأنَّه أحكم الحاكمين، وأكبر من كلِّ شيء، وأجمل من كلِّ شيء[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ماذا يملك مِن أمره مَن ناصيته بيد اللَّه ونفسه بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلِّبه كيف شاء، وحياتُه بيده، وموته بيده، وسعادتُه بيده، وشقاوتُه بيده، وحركاتُه وسكناتُه وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته؟ فلا يتحرَّك إلَّا بإذنه، ولا يفعل إلَّا بِمشيئته، إن وكله إِلَى نفسه وكَلَه إِلَى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة.

وإن وَكَله إِلَى غيره وَكَله إِلَى مَن لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياةً ولا

(١) انظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٢١٦).

نشورًا، وإن تَخلَّى عنه استولى عليه عدوُّه، وجعله أسيرًا له، فهو لا غِنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطرٌ إليه على مدى الأنفاس فِي كلِّ ذرَّة من ذرَّاته باطنًا وظاهرًا، فاقته تامَّةٌ إليه، ومع ذلك فهو مُختلفٌ عنه معرضٌ عنه، يتبغَّض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كلِّ وجه، قد صار لذكره نسيًّا، واتَّخذه وراءه ظهريًّا، هذا وإليه مرجعه، وبين يديه موقفُه»[(١)].

وهو سبحانه ذو العزَّة والقهر والغلبة، وجميع الخلق فِي غاية الذُّلِّ ونِهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إليه، ولَم يخلُ مخلوقٌ من إحسانه وبرِّه طرفة عين، وإنَّما يزعم الإنسان استقلاله بنفسه واستغناءه عن ربِّه عند طفرة طغيان عليه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق ٦-٨].

وهو سبحانه ذو رحمة واسعة، تبلغ رحمتُه حيث يبلغ علمُه؛ فقد أخبر اللَّه عن ملائكته أنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧][(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأكمل الناس عبودية المتعبِّدُ بجميع الأسماء والصفات الَّتِي يطَّلع عليها البشر**»[(٣)].

وبِهذا فسَّر بعضُ أهل العلم قول رسول اللَّه ﷺ: «**إن للَّه تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**»[(٤)].

قال ابن القيم أيضًا: «إحصاءُ الأسماء الحسنى والعلم بِها أصلٌ للعلم بكل معلوم؛ فإن المعلومات سواه:

إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا.

إما علمٌ بِما كوَّنه، أو علمٌ بِما شرعه.

ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى. . .

(١) الفوائد (ص: ٧٤).

(٢) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص: ١٨).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

(٤) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

فأمرُه كلُّه مصلحةٌ وحكمةٌ ورحمةٌ ولطفٌ وإحسانٌ؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنَى.

وفعلُه كلُّه لا يخرج من العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدرُه أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت فِي خلقه ولا عبث، ولَم يخلق خلقه باطلًا ولا سدًى...»[1].

وقد بسط ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ فِي غير هذا الموضع[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «شرفُ العلم تابعٌ لشرف معلومه ... ولا ريب أن أجلَّ معلوم وأعظمه وأكبَرَه فهو اللَّه الذي لا إله إلا هو ربُّ العالمين، وقيُّومُ السموات والأرضين، الملكُ الحقُّ المبين، الموصوفُ بالكمال كلِّه، المُنَزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ونقص، وعن كلِّ تمثيل وتشبيه فِي كماله، ولا ريب أنَّ العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلوم وأفضلُها ...

والعلمُ به أصلُ كلِّ علم ومنشؤهُ؛ فمن عرف اللَّه عرف ما سواه، ومن جهل ربَّه فهو لِمَا سواه أجهلُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]. فتأمَّل هذه الآية تجد تحتها معنًى شريفًا عظيمًا، وهو أن من نسِيَ ربَّه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقتَه ولا مصالِحه، بل نسيَ ما به صلاحُه وفلاحُه فِي معاشه ومعادِه، فصار معطَّلًا مهمَلًا بِمنزلة الأنعام السائبة، بل ربَّما كانت الأنعامُ أخبرَ بمصالحها منه ...

والمقصود: أن العلم باللَّه أصلُ كلِّ علم، وهو أصلُ علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته ...»[3].

ومن أيقن هذا بقلبه كانت نفسُه عنده أهون عليه من أن يقدِّمَ راحتَها ولذَّتَها على مرضاة ربِّه، هذا فِي معرفته قدر نفسه.

وأمَّا فِي معرفته قدر ربِّه، فإنَّ ذلك يورثه حياءً من اللَّه، ومحبَّةً له، وتعلُّقَ قلبه به، والشوق إلَى لقائه، والأنس به، والإنابة إليه، وخشيته والفرار من الخلق إليه، والناسُ يتفاوتون فيها تفاوتًا لا يُحصيه إلَّا الذي عرَّفهم بنفسه، وكشف لقلوبِهم من معرفته ما

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦٣).

(٢) انظر كتابه: مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١٠-٥١٣، ط علي الحلبي).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٦).

أخفاه عن سواهم، وقد قال أعرفُ الخلق به نبيُّنا مُحمَّد ﷺ: «**لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]. وأخبرَ أنَّه سبحانه يَفتحُ عليه يوم القيامة من محامده بِما لا يُحسنه الآن[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمَحبة والشوقُ تابعٌ لمعرفته والعلم به، فكلَّما كان العلمُ به أَتَمَّ كانت مَحبَّتُه أكملَ . . . فمَن كان يؤمن باللَّه وأسمائه وصفاته، وبه أعرفَ كان له أحبَّ، وكانت لذَّتُه بالوصول إليه ومُجاورته والنظر إلَى وجهه وسماع كلامه أَتَمَّ . . . وكمالُ العبد بحسب هاتين القوَّتين: العلم والحب، وأفضل العلم، العلم باللَّه، وأعلى الحبِّ، الحبُّ له، وأكمل اللَّذَّةِ بِحسَبِهما، واللَّه المستعان»[3].

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «خرج أهلُ الدنيا من الدنيا، ولَم يذوقوا أطيب ما فيها. قالوا: وما هو يا أبا يَحيَى؟ قال: معرفة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ»[4].

ولذلك كلَّما اشتدَّت معرفةُ العبد بربِّه ازداد شوقُه إلَى لقائه؛ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ليس للمؤمن راحةٌ دون لقاء اللَّه، فمن كانت راحتُه فِي لقاء اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فكأن قَدِ**»[5].

ومعناه: أنَّه إذا بلغ إيمانه هذا المبلغ من الأنس باللَّه، وطمأنينة قلبه به فقد وصل، كما قال تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]. فكيف بِمن اشتاق إلَى لقيا ربِّه عَزَّ وَجَلَّ، ولَم يستوحش من مفارقة الأصحاب؟!

كما قال عدي بن عدي: «كتب إليَّ عمر بن عبد العزيز: أمَّا بعد، فإنَّ للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسُننًا، فمَن استكملها استكمل الإيمان، ومَن لَم يستكملها لَم

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦).

(٢) هو فِي صحيح البخاري (٤٧١٢)، وصحيح مسلم (٣٢٦). وانظر: الفوائد لابن القيم (ص٢٢١).

(٣) الفوائد (ص: ٧٠).

(٤) رواه الدِّينوري فِي المجالسة (٢٢٢، و١٨٧٩)، وأبو نعيم فِي الحلية (٢/ ٣٥٨)، وابن عساكر فِي تاريخ دمشق (٥٦/ ٤٢٠-٤٢١، ٤٢٦-٤٢٧) بأسانيد يصحِّح بعضُها بعضًا. وروي من قول عبد اللَّه بن المبارك كما فِي الحلية لأبِي نعيم (٨/ ١٦٧).

(٥) رواه وكيع فِي الزهد (٨٦)، وأحمد فِي الزهد (ص١٥٦)، بشطره الأول، وبتمامه رواه أبو الحسن الأخميمي فِي حديثه (٢/ ٦٣/ ١) كما فِي السلسلة الضعيفة للألباني (٢/ ١١٦) وهناك صحَّحه هذا الأخير.

يستكمل الإيمان، فإن أعِش فسأبيِّنُها لكم حَتَّى تعملوا بِها، وإن أمُت فما أنا على صُحبتكم بِحريص»[١].

ومن قبل هؤلاء جميعًا سادةُ العالمين باللَّه، ألا وهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فقد بلغت عنايةُ ربِّهم بِهم أن يُخيِّرَهم بين زيادة الحياة والموت، فكانوا يَختارون لقاء ربِّهم ﷻ، كما بوَّب البخاري فِي صحيحه: «باب من أحبَّ لقاءَ اللَّه أحبَّ اللَّه لقاءَه»، وأسند فيه عن عائشة زوج النَّبِي ﷺ قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لَم يُقبض نَبِيٌّ قطُّ حَتَّى يرى مقعده من الجنة ثُمَّ يُخير. فلما نُزل به ورأسُه على فخذي غُشي عليه ساعةً ثُمَّ أفاق، فأشخص بصرَه إلَى السقف، ثُمَّ قال: **اللَّهم الرفيق الأعلى**. قلت: إذن لا يَختارنا، وعرفتُ أنَّه الحديث الذي كان يُحدِّثنا به، قالت: فكانت تلك آخرَ كلمة تكلَّم بِها النَّبِيُّ ﷺ قوله: **اللَّهم الرفيق الأعلى**»[٢].

فكيف جَفَت طباعُ قوم وغلظت حُجُبُهم عن فهم هذا؟! وأخذوا يرمون بالسفسطة كلَّ مدافع عن صفات اللَّه وأسمائه من شبه أهل التعطيل والتمثيل، ولَم يروا للَّه حقًّا عليهم فِي الدِّفاع عن ذاته المقدَّسة!!

كيف يكون تعليم التوحيد الذي كان عليه سلفُنا الصالحُ والذبُّ عنه مهاتراتٍ كلامية ومناقشات بيزنطيَّة؟! كيف ينطلي عليك هذا -أخي القارئ!!- وأنت لا تكاد تُجاوزُ آية من كتاب ربِّك إلَّا وهي مَختومة بالتذكير باسم من أسماء اللَّه ﷻ، أو صفة من صفاته؟!

كمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]. وقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ

(١) رواه البخاري فِي صحيحه تعليقًا (١/ ٤٥- الفتح) ووصله ابن أبِي شيبة فِي كتاب الإيمان (١٣٥)، وابن حجر فِي تغليق التعليق (١/ ١٩)، وصححه هو والعيني فِي عمدة القاري (١/ ١١٤)، والألباني فِي تعليقه على الإيمان لابن أبِي شيبة (ص٤٥).

(٢) البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٤/ ١٨٩٤).

وَبُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٦].

كل ذلك لِمَا لهذه الأسماء الحسنى والصفات العُلَا من تأثير فِي قلب العالِم بِها، حَتَّى يراقب اللَّه فِي شئونه كلِّها، فيكمل بذلك حياؤه؛ فعن سعيد بن يزيد الأنصاري أنَّ رجلًا قال: «يا رسول اللَّه! أوصنِي. قال: **أوصيك أن تستحي من اللَّه ﷻ كما تستحي رجلًا من صالحي قومك**»[١].

وقال أبو بكر الصدِّيق ﷺ وهو يَخطب الناس: «يا معشر المسلمين! استحيوا من اللَّه؛ فوالذي نفسي بيده! إنِّي لأظلُّ حين أذهب إلَى الغائط فِي الفضاء متقنِّعًا بثوبِي استحياءً من ربِّي ﷻ»[٢].

ولذلك أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ أن العبد لا يُباشر بعض المعاصي إلَّا لخلوِّ قلبه من الإيمان حين يُباشرها؛ فعن أبِي هريرة ﷺ، عن النَّبِي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزنِي وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربُها وهو مؤمن، والتوبة معروضةٌ بعدُ**»[٣].

قال عكرمة: قلتُ لابن عباس: كيف يُنزع الإيمان منه؟ قال: «هكذا -وشبَّك بين أصابعه ثُمَّ أخرجها- فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبَّك بين أصابعه»[٤].

ولذلك لَمَّا دعا نوحٌ ﷺ قومَه فلم يُجيبوه عرف أنَّهم أُتُوا من قِبل عدم معرفتهم لعظمة اللَّه، الَّتِي سمَّاها بالوقار، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. قال ابن عباس: «لا تعلمون عظَمَتَه»[٥].

---

(١) رواه أحمد فِي الزهد (٤٦)، والبيهقي فِي الشعب (٧٣٤٣)، وغيرُهما، وقال فيه الألباني: «وهذا إسناد جيد»، السلسلة الصحيحة (٧٤١).

(٢) رواه ابن المبارك فِي الزهد (٣١٦)، وابن أبِي شيبة (١/ ١٠٥-١٠٦)، وهنَّاد فِي الزهد (١٣٥٦)، وعبد اللَّه ابن أحمد فِي زوائد الزهد (٢١١)، والخرائطي فِي مكارم الأخلاق (٢٩٠)، وابن حبان فِي روضة العقلاء (ص: ٥٧)، وأبو نعيم فِي الحلية (١/ ٣٤)، والبيهقي فِي الشعب (٧٣٣٧)، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٧٦)، والبخاري (٦٨١٠)، ومسلم (٥٧)، وغيرهم.

(٤) رواه البخاري (٦٨٠٩).

(٥) رواه ابن جرير فِي تفسيره (٢٩/ ٩٥)، وأبو الشيخ فِي العظمة (٧٣)، والبيهقي فِي الشعب (٧١٧)، من طرق يُقوِّي بعضُها بعضًا، لاسيما الَّتِي بعد هذا الأثر.

وفِي رواية أنَّه فسَّر هذه الآية بقوله: «ما لكم لا تعظِّمون اللَّه حقَّ عظمته»[١].

وذلك لأنَّ الخلقَ لو عظَّموا اللَّه ما أشركوا به شيئًا؛ إذ الخير كلُّه بيده، فكيف يلجئون إلَى غيره، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]؟!

ولأنَّ الشرَّ كلَّه مدفوعٌ عنهم بقوَّته وقهره وجبروته؛ قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦].

ولو عظَّم الخلق ربَّهم لسكنت الخشيةُ قلوبَهم، حَتَّى لا ترى منهم عاصيًا؛ إذ خشيةُ اللَّه تَحول بينهم وبين مواقعة سخطه، كما قال سعيد بن جُبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الخشية أن تَخشى اللَّه حَتَّى تَحول خشيتُك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذكرُ طاعة اللَّه؛ فمن أطاع اللَّه فقد ذكره، ومن لَم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثرَ التسبيح وتلاوة القرآن»[٢].

وفِي كلامه هذا معنى دقيقٌ ينبغي التنبُّه له، وهو أن العبد لا يعصي اللَّه إلَّا إذا غاب عن قلبه مراقبةُ اللَّه، وذهل عن كون اللَّه معه يسمعه ويراه، واستولى عليه توقانُ نفسه للمعصية، وشُدَّ إليها قلبُه شدًّا، ولكنَّه متى ذكر اطِّلاعَ اللَّه عليه انتهى؛ قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن أطاع اللَّه فقد ذكره» يريد بالذِّكر: أصل الذِّكر وأساسه، الذي هو ذكر القلب، والذي هو أكبر باعث على الطاعة، كما قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذِّكر ذِكران: ذكر اللِّسان حسن، وأفضل من ذلك أن يذكر اللَّه العبدُ عند المعصية فيُمسك عنها»[٣].

فعاد الأمرُ فِي الطاعة والانتهاء عن المعصية إلَى معرفة اللَّه ومراقبته وخشيته، وكلُّ ذلك من تعظيمه سبحانه.

بل إنَّ المرء ليستشعر عظمة اللَّه فتسقط عبادتُه من عينه مهما كثُرت، ولا يراها شيئًا

(١) رواه ابن جرير فِي تفسيره (٢٩/ ٩٤) وهو صحيح بِما قبله.
(٢) رواه أبو نعيم فِي الحلية (٤/ ٢٧٦) بإسناد صحيح، ومُحمَّد بن حسن البلخي وثقه أحمد بن سيار كما فِي الثقات لابن حبان (٩/ ٨١).
(٣) رواه ابن أبِي الدنيا فِي الورع (٤٩)، وأبو نعيم فِي الحلية (٤/ ٨٧) بإسناد صحيح.

فِي جنب اللَّه، فيدفعه ذلك إِلَى الاجتهاد فِي العبادة وإحسانِها، من غير قنوط ولا زيادة على المشروع.

فتأمَّل حال الذين كابدوا ليلَهم قيامًا للَّه طائعين، كيف ختموا عبادتَهم بالاستغفار من تقصيرهم وجلين، قال اللَّه ﷻ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

وعن عتبة بن عبد قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لو أن رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلد إِلَى يوم يَموت هَرِمًا فِي مرضاة اللَّه ﷻ لَحَقَّره يوم القيامة**»[١].

وعلى هذا فلا ينبغي للعبد أن يُفارق طاعةَ ربِّه، أو يُقصِّر فِي شكره، مستشعرًا منه أمنًا لِمَا يرى من نِعم اللَّه السابغة عليه، ومقدِّرًا أنه راض منه باليسير من الطاعة الَّتِي يوفيه من نفسه؛ فإنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩][٢].

ولذلك قال ذو النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلموا أن الذي أهاج الحياءَ من اللَّه ﷻ معرفتُهم بإحسان اللَّه إليهم، وعلمُهم بتضييع ما افترض اللَّه عليهم من شكره، وليس لشكره نِهاية، كما ليس لعظمته نِهاية»[٣].

ولذلك فإنه لا يعصي اللَّه إلَّا من لَم يقدر اللَّه حقَّ قدره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

والجهل بقدر اللَّه هو رأس الجهالة، وهو سبب جُرأة العبد على مَحارم ربِّه، قال

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٥)، والبخاري فِي التاريخ الكبير (١/ ١٥)، والفسوي فِي المعرفة والتاريخ (١/ ٣٤٠)، والطبراني فِي الكبير (١٧/ ١٢٣)، وأبو نعيم فِي الحلية (٢/ ١٥)، و(٥/ ٢١٩)، والبيهقي فِي الشعب (٧٥١)، بإسناد جيِّد. انظر: السلسلة الصحيحة للألباني (٤٤٦).
ورواه ابن المبارك فِي الزهد (٣٤)، وأحمد (٤/ ١٨٥)، والبخاري فِي التاريخ الكبير (١/ ١٤)، والطبراني (١٩/ ٢٤٩) موقوفًا على الصحابِي مُحمَّد بن أبِي عميرة بإسناد صححه الألباني فِي المصدر السابق (١/ القسم الثاني ص: ٨٠٨)، وقال: «وهو فِي حكم المرفوع».

(٢) انظر: المنهاج فِي شعب الإيمان للحليمي (١/ ٥٠).

(٣) رواه البيهقي فِي الشعب (٧٣٤٩).

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

فعن أبي العالية أنه كان يُحدِّث أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: «كلُّ ذنب أصابه عبدٌ فهو بجهالة»[١].

وكذلك صحَّ عن قتادة وذكر أن أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا على ذلك[٢].

وهذا من فقه الصحابة -رضوان الله عليهم- في كتاب الله ﷻ، ومن معرفتهم بنفس الإنسان، وما للتوحيد من أثر بالغ في تزكيتها، حَتَّى قال السُدي عند قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]. «ما دام يعصي الله فهو جاهل»[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصودُ أنَّ كلَّ عاص لله فهو جاهل، وكلُّ خائف منه فهو عالِمٌ مطيعٌ لله وإنَّما يكون جاهلًا لنَقص خوفه؛ إذ لو تَمَّ خوفه من الله لَم يعص، ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا»[٤]. وذلك

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٨٩- شاكر) بإسناد صحيح؛ وسعيد هو: ابن أبي عروبة، ثقة اختلط بأخرة، إلا أنَّ الراوي عنه هو يزيد بن زُريع، سمع منه قبل اختلاطه كما قال الإمام أحمد بن حنبل. انظر: المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ١٤٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥١)، وابن جرير في تفسيره (٨/ ٨٩)، بإسناد صحيح.

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٨/ ٨٩-٩٠) بإسناد جيِّد.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١)، وأحمد في الزهد (ص: ١٥٨)، وأبو داود في الزهد (١٧٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١١-٢١٢)، وابن بطة في إبطال الحيل (٩-العمير)، والبيهقي في الشعب (٧٣٢)، وفي المدخل (٤٨٧)، كلهم من طريق المسعودي، وهو وإن كان قد اختلط، فإنَّ ذلك لا يضرُّ روايته هذه؛ لأنَّها عن القاسم، وكان قد أتقنها؛ فقد سئل يَحيَى بن معين عن المسعودي، فقال: «كان ثقة . . . وكان صحيح الرواية فيما حدَّث به عن القاسم ومعن». رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٢٢١).

لكن بقي الانقطاع بين القاسم، وعبد الله بن مسعود، إلاَّ أنَّ الجملة الأولى -الَّتي هي موضع الشاهد- قد وردت من رواية أخرى بلفظ: «العلم خشية». وهي في معناها تمامًا، رواه أحمد في الزهد (ص١٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١)، والبيهقي في المدخل (٤٨٦) من طريق عون بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن مسعود، وهو إسناد صحيح، لولا الانقطاع بين عون وابن مسعود، قال الترمذي في سننه (٣/ ٥٦١): «عون بن عبد الله لَم يُدرك ابن مسعود»، وانظر كلام الشافعي فيه في السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ٣٣٢)، =

لأن تصوُّر المخوف يوجب الهرب منه، وتصوُّرَ المحبوب يوجب طلبه، فإذا لَم يهرب من هذا، ولَم يطلب هذا، دلَّ على أنه لَم يتصوَّره تصوُّرًا تامًّا»[١].

وكلما كان العبد بربِّه أعرف كان له أخوف؛ قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [الزمر:٢٨]. وأعلم العلماء رسولُ اللَّه ﷺ الذي كان على وَجَل من معصية ربِّه، وهو مَن هو! لأنَّ اللَّه أمره بأن يقول: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥]. لأنَّ المعاصي عند الموحِّدين العارفين باللَّه -وإن دقَّت- يرونَها كالجبال، لما يعلمون من عظمة الواحد القهَّار، فجيل الصحابة لما كان أعرف جيل بحقوق اللَّه كانوا أخوفَ الناس؛ قال عبد اللَّه بن مسعود: «إنَّكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ فِي أعينكم من الشَّعر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النَّبي ﷺ من الموبقات»[٢]. قال البخاري: يعنِي المهلكات.

ولا نقول هذا من باب قول بعضهم: حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين؛ وإنَّما هو الذنب وإن صغر فِي أصله، كَبُر على مرتكبه حين يستشعر عظمة الجبَّار وهو يعصيه؛ فيتقاصر به الحياء.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلَى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلَى مَن عصيت»[٣].

= والدارقطني فِي سؤالات البرقاني (٣٨٥)، والعلائي فِي جامع التحصيل (ص: ٢٤٩).

وهذه الرواية تقوِّي رواية القاسم السابقة، لا سيما وأنَّ لَها شواهد كثيرة فِي الكتاب والسنة وآثار السلف، لا يتَّسع المقام لسردها.

تنبيه: جاء فِي إسناد أبِي نعيم من رواية عون بن عبد اللَّه أنه قال: «قال لي عبد اللَّه». كذا فِي الحلية (١/ ١٣١)، ولولا أنَّني لَم أجد من صرح بسماع عون بن عبد اللَّه من ابن مسعود لقلتُ بذلك، فلعلَّه يكون تصحيفًا أو نحوه.

وعلى كلِّ حال، فلا أشك فِي صحة نسبة هذه المقولة لابن مسعود رضي الله عنه لما سبق ذكره، وإن كان الخطب هنا هيِّنًا، والعلم عند اللَّه تعالى.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢-٢٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٧١)، وعبد اللَّه بن أحمد فِي زوائد الزهد (ص: ٣٨٤)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٣٢)، وأبو الفضل الزهري في حديثه (٤٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٥٠١-٥٠٢)، والذهبي في السير (٥/ ٩١)، وهو صحيح، وإن كان فيه عنعنة الوليد بن مسلم=

وتأمل الأثر الآتي تدرك سرَّ خوف القوم من اللَّه تعالى، وعلاقةَ ذلك بالإخلاص له سبحانه، قال يَحيَى بن معاذ الرازي: «كيف يُنجينِي عملي، وأنا بين حسنة وسيِّئة؟ فسيِّئاتي لا حسنة فيها، وحسناتِي مخلوطة بالسيِّئات، وأنت لا تقبل إلَّا الإخلاص من العمل، فما بقي بعد هذا إلا جودُك»(١).

وهذا الإزراء على النفس يخلِّص القلب من العُجب بالعمل؛ لأنه يُنافي الإخلاص من جهة ملاحظة النفس والإدلال على اللَّه، مع أنَّ كلَّ فضل أصابه المرءُ فمن اللَّه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ولذلك فإنَّ إبليس إذا أعياه إرغام أنف العابد فِي المعصية، ورآه منقطعًا لعبادة ربِّه، ألقى فِي نفسه عبارات المدح والتزكية، حَتَّى يُهيِّج منه العُجبَ والرياء وطلب السمعة، ولا يزال يُراوده عن ذلك، طامعًا فيه إلَى آخر رَمَق من حياته.

قال عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل: «حضرت أبِي الوفاةُ، فجلستُ عنده، وبيدي الخرقة -وهو فِي النَّزع- لأشدَّ لحيَيه، فكان يَغرق حَتَّى نظنّ أن قد قضى ثُمَّ يُفيق، ويقول: لا بعدُ! لا بعدُ! ففعل هذا مرَّة وثانية.

فلمَّا كان فِي الثالثة قلتُ له: يا أبت! أَيشٍ هذا الذي قد لهجتَ به فِي هذا الوقت؟

فقال لي: يا بُنَي! ما تدري؟

فقلتُ: لا!

فقال: إبليس -لعنه اللَّه!- قام بِحذائي عاضًّا علي أنامله، يقول: يا أحمد! فُتِّنِي(٢). وأنا أقول: لا بعد! حَتَّى أموت»(٣).

= المدلِّس، فقد صرَّح بالتحديث في إحدى طريقي ابن عساكر والذهبي، ثم هو قد توبع كما تعرفه من مصادر التخريج.

(١) رواه البيهقي فِي الشعب (٨٢٤)، ونحوه برقم (٨٢٣).

(٢) أي: يوهمه إبليس: أنَّك قد نجوتَ مني، ليعجب بنفسه، وهذا -واللَّه- فتنة عظيمة، وساعة عصيبة مريبة، والمعصوم من عصم اللَّه.

(٣) رواه ابن عَلم فِي جزئه كما فِي السير (١١/ ٣٤١)، وأبو نعيم فِي الحلية (٩/ ١٨٣)، والبيهقي فِي الشعب (٨٢٦)، وابن الجوزي فِي مناقب أحمد (ص: ٥٤٦-٥٤٧) بإسناد جيِّد، قال الذهبي فِي السير (١٥/ =

ومن تذكر هذا وما كان عليه الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من التذكير بالتوحيد والتوصية به حَتَّى عند مماتِهم -كما سبق- عرف سرَّ ارتباط هذه الكلمة -إذا وقرت فِي القلب- بالثبات على الإسلام عند مفارقة هذه الدنيا، وذلك مأخوذ من تسميتها بالقول الثابت فِي آية سورة إبراهيم وهي قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالتوحيد أوّل ما يدخل به فِي الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النَّبِي ﷺ: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا اللَّه؛ دخل الجنة**»[١]. فهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره»[٢].

ولذلك جرت عادة اللَّه فِي عباده أن من عاش على التوحيد الخالص، ولَم يدنِّسه بشبهات أهل التأويل والتعطيل والتمثيل، توفّاه اللَّه عليه، لاسيما من كان منهم داعية إليه، ذابًّا عنه.

قال الحافظ عبد الغافر الفارسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت أبا صالح يقول: دخلت على أبِي بكر اللَّبَّاد ساعة موته، فسمعته يقول -وهو يجود بنفسه-: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]. فعدَّ الأسامي إلَى آخرها»[٣].

ومِمَّا لا أكاد أنساه وصيةُ شيخنا مُحمَّد أمان الجامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد ذكر لنا من حضره من مشايخنا وغيرهم أنه كان يقول فِي سياقات الموت: «العقيدة! العقيدة! أوصيكم بذلك».

ونِعمَ الميتة هذه! فقد عاش الشيخ للتوحيد، لا يكاد يُعرف له كلامٌ إلَّا فِي التوحيد والدفاع عنه، فختم اللَّه له به؛ حيث جعله وصيته من بعده، كما فعل الخليل إبراهيم

= ٥٤٤)، عند ترجمة ابن عَلَم -راوي هذه القصة-: «حكايته عن عبد اللَّه بن أحمد فِي قول أبيه لا تُعدُّ منكرة». وانظر أيضًا السير (١١/ ٣٤١)، فإنه يحتاج إلَى تحرير، وإن كان معنى القصة لا شيء فيه من الناحية الفقهية، انظر الشعب للبيهقي (٨٢٧) وما بعدها.

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/ ٣٥١) من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٣).

(٣) «المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور» لإبراهيم الصريفيني (ص: ٣٦)، وهذا سند صحيح.

وبنوه -عليهم الصلاة والسلام-، قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣].

الرياء

كما أن التوحيد يقابله الشرك، فإن الإخلاص يقابله الرياء، وكما أن نور الإخلاص ينطفئ من قلب المرء إذا قام به شاهدُ العُجب بالنفس، فإن الإخلاص لا يقوم أبدًا مع الرياء؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وهو من أبرز صفات المنافقين؛ لأنَّهم يُظهرون ما لا يُبطنون، قال اللَّه تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. ولذلك كان من شرط توبتهم أن يُخلصوا الدين للَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

ولذلك كان كل عمل لا يراد به وجه اللَّه غير مقبول، وهو وبال على صاحبه يوم القيامة؛ فعن أبِي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه**»[1].

وفِي رواية: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»[2].

وقد قيل فِي تعريف الإخلاص[3]: «الإخلاص استواء أعمال العبد فِي الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه، والصدق فِي الإخلاص أن يكون باطنه أعمَر من ظاهره».

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٠٢) وهو صحيح.

(٣) انظر هذا التعريف وما بعده فِي مدارج السالكين (٢/ ٩١).

قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تكن وليًّا للَّه فِي العلانية، وعدوَّه فِي السرِّ»[١].

والتعريف الأخير للصدق مُنتزَع من مثل قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وهو صفة أحد السبعة الذين يظلهم اللَّه فِي ظله يوم لا ظلَّ إلَّا ظله؛ كما قال ﷺ: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حَتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يَمينه . . .**»[٢].

والناس ينشطون لستر سيِّئاتِهم ما لا ينشطون لستر حسناتِهم؛ لأنَّهم يريدون بذلك أن يقوم لَهم جاهٌ عند غيرهم، بل ترى كثيرًا منهم ينشطون فِي الجلوة، ويكسلون فِي الخلوة، ولذلك قيل: «الإخلاص ألَّا تطلب على عملك شاهدًا غير اللَّه، ولا مُجَازيًا سواه».

ولو أن المرء يجتهد لستر حسناته عن الخلق كما يجتهد لستر سيِّئاته عنهم لبلغ درجات المخلصين، كما قال أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «اكتُم من حسناتك، كما تكتم من سيِّئاتك»[٣].

وقيل: الإخلاص: «هو إفراد الحق سبحانه بالقصد فِي الطاعة».

وقيل: «تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين».

ولذلك قيل لسهل: أيُّ شيء أشدُّ على النفس؟ فقال: «الإخلاص؛ لأنَّه ليس لَها فيه نصيب».

قال أبو بكر المروذي: سمعت رجلًا يقول لأبِي عبد اللَّه[٤] -وذكر له الصدق

(١) رواه أحمد فِي الزهد (ص: ٣٨٥)، والفريابِي فِي صفة المنافق (٩١)، وأبو الفضل الزهري فِي حديثه (٤٠١)، وأبو نعيم فِي الحلية (٥/ ٢٢٨)، والبيهقي فِي الشعب (٦٥٤٨)، وابن عساكر فِي تاريخ دمشق (١٠/ ٤٨٨-٤٨٩)، والذهبِي فِي السير (١١/ ٥١٨).
وهو صحيح وإن كان فيه عنعنة الوليد بن مسلم المدلس، فقد صرَّح بالتحديث فِي بعض هذه الطرق، ثُمَّ هو قد تابعه بقية بن الوليد، كما فِي إحدى طريقي أبِي نعيم.

(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) رواه الفسوي فِي المعرفة والتاريخ (١/ ٦٧٩)، وأبو نعيم فِي الحلية (٣/ ٢٤٠)، والبيهقي فِي الشعب (٦٤٩٦)، وابن عساكر فِي تاريخ دمشق (٢٢/ ٦٨) وهو صحيح.
وفِي رواية للبيهقي فِي الشعب (٦٥٠٠) بلفظ: «أخف حسنتك كما تُخفي سيِّئتك، ولا تكوننَّ مُعجَبًا بعملك؛ فلا تدري أشقيٌّ أنت أم سعيد؟».

(٤) وفِي طريق: «وسُئل: بِمَ بلغ القوم حَتَّى مُدحوا؟».

والإخلاص- فقال أبو عبد اللَّه: «بِهذا ارتفع القوم»[١].

ولِهذا كان أئمَّة هذه الأمة يكرهون الشهرة، ويُحبُّون خمولَ الذِّكر؛ رعاية منهم لإخلاصهم وخوفًا على قلوبِهم من فتنة المدح، فمن الناس من يُبتلى بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له فِي المَجلس، والإشارة إليه بالدعاء رجاء بركته، ونحو ذلك، فمن قلَّ نصيبُه من الإخلاص أعجبه ذلك وربَّما طلبه[٢].

قال حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت أمشي مع أيوب، فيأخذ بي فِي طرق، إنِّي لأعجبُ كيف اهتدى لَها؟! فرارًا من الناس أن يُقال: هذا أيوب»[٣].

وقال أيضًا: «وكان أيوب يأخذ بي فِي طريق وهي أبعدُ! فأقول: إن هذا أقرب! فيقول: إنِّي أتَّقي هذه المجالس، وكان إذا سلَّم يردُّون عليه سلامًا فوق ما يُرَدُّ على غيره، فيقول: اللَّهم إنك تعلم أنِّي لا أريده! اللَّهم إنك تعلم أنِّي لا أريده!»[٤].

وقال أبو زرعة يَحيَى بن أبِي عمرو: «خرج الضحاك بن قيس فاستسقى بالناس، ولَم يُمطروا، ولَم يَروا سحابًا، فقال الضحاك: أين يزيد بن الأسود؟ -وفِي رواية:- فلم يُجبه أحد! ثُمَّ قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ عزمتُ عليه إن كان يسمع كلامي إلا قام. فقال: هذا أنا! قال: قم! فاستشفع لنا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يسقينا، فقام، فعطف برأسه على منكبيه، وحسر عن ذراعيه، فقال: اللَّهم إنَّ عبادك هؤلاء استشفعوا بي إليك. فما دعا إلَّا ثلاثًا حَتَّى أُمطروا مطرًا كادوا يغرقون منه، ثُمَّ قال: إن هذا قد شهَّرنِي فأرحنِي منه، فما لبث بعد ذلك إلَّا جمعة حَتَّى مات»[٥].

---

(١) رواه ابن الجوزي فِي مناقب الإمام أحمد (ص: ٢٦٧)، و(ص: ٢٧٤) من ثلاث طرق، يُصحِّح بعضُها بعضًا.

(٢) انظر: الفوائد لابن القيم (ص: ٢٢٣).

(٣) رواه ابن سعد (٧/ ٢٤٩)، والفسوي فِي المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٣٢)، وهو صحيح.

(٤) رواه ابن سعد (٧/ ٢٤٨)، والفسوي (٢/ ٢٣٩-بشطره الأخير)، وهو صحيح.

(٥) رواه الفسوي فِي المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٨١)، ومن طريقه ابن عساكر فِي تاريخ دمشق (٦٥/ ١١٢).
ورواه اللالكائي فِي الكرامات (١٥٠)، والبيهقي فِي الشعب (٦٥٧٧)، ومن طريقه ابن عساكر أيضًا (٦٥/ ١١٣).
ورواه أبو زرعة الدمشقي فِي تاريخه (١٧٠٤- مختصرًا)، ومن طريقه ابن عساكر أيضًا (٦٥/ ١١٢)، ومن طريق غيره (٦٥/ ١١٣ - مختصرًا أيضًا) وفِي إسناده أيوب بن سويد وقد توبع.

وأجمعُ تعريف للإخلاص رأيته، وهو جامع لشتات ما سبق هو ما قاله أبو عثمان سعيد بن إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق، والإخلاص أن تريد بقلبك وعملك وفعلك رضا اللَّه تعالى خوفًا من سخط اللَّه؛ كأنَّك تراه بحقيقة عملك بأنَّه يراك، حَتَّى يذهب الرياء عن قلبك.

ثُمَّ تذكر مِنَّة اللَّه عليك إذ وفَّقك لذلك العمل، حَتَّى يذهب العجبُ من قلبك، وتستعمل الرِّفق فِي عملك، حَتَّى تذهب العجلةُ من قلبك، وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما جُعل الرِّفق فِي شيء إلَّا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه**»[1].

قال أبو عثمان: والعجلةُ اتِّباع الهوى، والرِّفق اتِّباع السنة، فإذا فرغتَ من عملك وجل قلبُك خوفًا من اللَّه أن يَردَّ عليك عملَك فلا يقبله منك، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. ومن جمع هذه الخصال الأربعة كان مُخلصًا فِي عمله -إن شاء اللَّه-»[2].

وتأمَّل هاهنا كيف جعل الرِّفق هو اتِّباع السنة؛ وذلك أنَّ النفس تَهوى أشياء، وإذا هَويَتها طَلَبتها على عجل؛ لأن حظَّها فيه، وهذا الهوى لا يكسر سورته إلَّا التأنِّي، وبالتأنِّي يتمكن المرء من مراقبة عمله بعين السنة كي يوافق الحق، لا بعين الهوى، ولذلك قال إبراهيم الخوَّاص: «العجلة تمنع من إصابة الحقِّ»[3].

وعلى كلٍّ فإن موضوع: «إخلاص الدِّين للَّه» طويلُ الذيل، وكثيرُ النَّيل، بل هو أعظم موضوعات ديننا الحنيف على الإطلاق، وإنَّما غرضي هنا هو مُحاولة الإلمام به من حيث أصولُه الَّتي لا يَسَعُ أحدًا التفريطُ فيها، وهو -مع هذا- أجلُّ من أن يُحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) رواه البيهقي فِي الشعب (٦٤٧٥).

(٣) رواه البيهقي فِي الشعب (٦٤٧٧) بسند صحيح.



الأصل الثاني:
الطريق واحد



الأصل الثاني: الطـريق واحـد

اعلم -رحِمك اللَّه!- أن الطريق الذي يضمن لك نعمة الإسلام واحد لا يتعدد؛ لأن اللَّه كتب الفلاح لحزب واحد فقط فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وكتب الغلبة لِهذا الحزب وحده فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ومهما بَحثت فِي كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فلن تَجد تفريق الأمة إلَى جَماعات وتَحزيبها فِي تكتلات إلا مذمومًا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وكيف يُقِرُّ ربنا ﷻ أمة على التشتت بعدما عصمها بِحبله، وهو يُبرِّئ نبيه ﷺ منها حين تكون كذلك وتوعَّدها عليه فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

عن معاوية بن أبِي سفيان أنه قال: ألا إن رسول اللَّه ﷺ قام فينا فقال: **«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فِي النار، وواحدة فِي الجنة، وهي الجماعة»**[1].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢/ ٢٤١)، والطبراني (١٩/ ٣٧٦، ٨٨٤-٨٨٥)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وغيرهم، وهو صحيح.

ورواه أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٣٩٩٠)، وأبو يعلى (٥٩١٠، ٥٩٧٨، ٦١١٧)، وابن حبان (١٤/ ٦٢٤٧)، و(١٥/ ٦٧٣١)، والحاكم (١/ ٦، ١٢٨)، وغيرهم من حديث أبِي هريرة، وله روايات أخرى كثيرة عن أنس، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وغيرهما ﵃.

وصححه الترمذي والحاكم والذهبي والجوزجاني فِي الأباطيل (١/ ٣٠٢)، والبغوي فِي شرح السنة (١/ ٢١٣)، والشاطبِي فِي الاعتصام (٢/ ٦٩٨-الهلالي)، وابن تيمية كما فِي المجموع (٣/ ٣٤٥)، وابن حبان فِي صحيحه (٨/ ٤٨)، وابن كثير فِي تفسيره (١/ ٣٩٠)، وابن حجر فِي تخريج الكشاف (ص٦٣)، والعراقي فِي المغني عن حمل الأسفار (٣٢٤٠)، والبوصيري فِي مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٠)، والألباني فِي السلسلة الصحيحة (٢٠٣)، وغيرهم كثير جدًّا.

وإنَّما ذكرتُ هذا لإفحام بعض أهل البدع، الذين يحاولون عبثًا تضعيف هذا الحديث العظيم الذي قال فيه الحاكم ﵀: «هذا حديث كبير -أو- كَثُر كما ضبطه بعضهم- فِي الأصول».

قال الأمير الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ: «ليس ذكر العدد فِي الحديث لبيان كثرة الهالكين، وإنَّما هو لبيان اتِّساع طرق الضلال وشُعبها، ووحدة طريق الحق، نظير ذلك ما ذكره أئمة التفسير فِي قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. أنه جمع السُّبُل المنهي عن اتِّباعها لبيان تشعب طرق الضلال وكثرتِها وسعتها، وأفرد سبيل الهدى والحق لوحدته وعدم تعدُّده»[١].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «خطَّ لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، ثُمَّ قال: هذا سبيل اللَّه. ثُمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه، وعن شماله، ثُمَّ قال: هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثُمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣][٢].

فدلَّ هذا الحديث بنصه على أن الطريق واحد.

قال ابن القيم: «**وهذا لأن الطريق الموصل إلَى اللَّه واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، ولا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل باللَّه موصل إلَى اللَّه**»[٣].

قلت. ولكن كثرة بُنياته العاديات تشكك فيه وتُخذِّل عنه، وإنَّما انْحَرف عنه من انْحَرف من الفرق استئناسًا بالتعدُّد، وتوحُّشًا من التفرُّد، واستعجالًا للوصول، وجُبْنًا عن تَحمل الطول.

قال ابن القيم: «**من استطال الطريق ضعف مشيه**»[٤].

واللَّه المستعان.

---

(١) حديث افتراق الأمة إلَى نيِّف وسبعين فرقة (ص: ٦٧-٦٨).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٣٥) وغيره وهو صحيح.

(٣) التفسير القيم (ص: ١٤-١٥).

(٤) الفوائد (ص: ٩٠) ط. دار الكتب العلمية.

تعريف الطريق

من كلام ابن القيم الأول نتبين الطريق، ونتبين أن المقصود بالطريق هاهنا هو الركن الثاني من أركان التوحيد بعد شهادة أن لا إله إلا اللَّه، أي: شهادة أن مُحمَّدًا رسول اللَّه، وهو أيضًا الركن الثاني من أركان العمل المتقبل؛ إذ لا يقبل عمل -كما هو معلوم- إلا بشرطين:

١- إخلاص الدين للَّه تعالى.

٢- تَجريد المتابعة لرسول اللَّه ﷺ.

ولست الآن بصدد الاستدلال لهذه القاعدة المشهورة؛ لأن الغاية من هذا المبحث هو بيان السبيل النبوية الَّتِي لا يوصل إِلَى اللَّه سواها؛ فإن «الجهل بالطريق وآفاتِها والمقصود يوجب التعب الكثير، مع الفائدة القليلة»[1].

وبيان أن هذه السبيل واحدة، لا يَجوز الافتئات فيها على رسول اللَّه ﷺ بادِّعاء أن الطريق إِلَى اللَّه بعدد أنفاس البشر، أو غير ذلك مِمَّا يعلم بطلانه من دين اللَّه الذي جاء ليوحد أهله، لا ليُفرِّقهم؛ وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد جاء تفسير هذا الحبل الكفيل بِجمع المسلمين بـ: «كتاب اللَّه».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن هذا الصراط مُحتضَرٌ، تَحضرُه الشياطين، ينادون: يا عبد اللَّه هلمَّ! هذا الصراط؛ ليصدوا عن سبيل اللَّه! فاعتصموا بِحبل اللَّه؛ فإن حبل اللَّه هو كتاب اللَّه»[2].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٢٢٣).

(٢) رواه أبو عبيد فِي فضائل القرآن (ص٧٥)، والدارمي (٢/ ٤٣٣)، وابن نصر فِي السنة (٢٢) وابن الضريس فِي فضائل القرآن (٧٤)، وابن جرير فِي تفسيره (٧٥٦٦- شاكر)، والطبراني (٩/ ٩٠٣١)، والآجري فِي الشريعة (١٦- الوطن)، وابن بطة فِي الإبانة (١٣٥) وهو صحيح.

وفي هذا الأثر فائدتان:

الأولى: أن الصراط واحد، وإنَّما تَحتف به الشياطين بغية تفريق الناس من حوله، ولا تَجد سبيلًا إلَى تفريقهم أحسن من ادعاء تعدده! فكل من رام إيهام الناس أن الحق ليس مَحجورًا فِي سبيل واحدة، فإنَّما هو شيطان، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

الثانية: تفسير «حبل اللَّه» -الذي يَجب أن يعتصم به المسلمون ليتحدوا- بكتاب اللَّه، وهذا لا يتعارض مع قول ابن مسعود ﷺ أيضًا: «الصراط المستقيم: الذي تركنا عليه رسول اللَّه ﷺ»[1].

وذلك لأن رسول اللَّه ﷺ ترك لهم الكتاب والسنة؛ كما قال: «**تركت فيكم ما إن تَمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب اللَّه وسنتي**»[2].

وذلك أيضًا لأن السنة ككتاب اللَّه فِي كونِها وحيًا، ثُمَّ هي تفسير لكتاب اللَّه، بل خير من فَسَّر كلامه تعالى من خلْقِه هو رسول اللَّه ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقالت عائشة ﷺ: «كان خُلُقُه القرآن»[3].

ولذلك أمر النَّبِي ﷺ أمته إذا دبَّت إليهم الفرقة بالاستمساك بسنته، فقال: «**. . . وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتِي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تَمسكوا بِها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور؛ فإن كل مُحدثة بدعة. . .**»[4].

---

(١) رواه الطبراني (١٠/ ١٠٤٥٤)، والبيهقي فِي الشعب (٤/ ١٤٨٧)، ونَحوه ابن جرير فِي تفسيره (٨/ ٨٨-٨٩)، وابن وضاح فِي البدع (٧٦- بدر)، وهو صحيح.

(٢) رواه مالك (٢/ ٨٩٩)، وابن نصر فِي السنة (٦٨)، والحاكم (١/ ٩٣) وحسنه الألباني فِي تعليقه على المشكاة (١٨٦).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٩١، ١٦٣)، ومسلم (٧٤٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وغيرهما، وهو صحيح.

قال ابن بطة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بيان سبب اجتماع كلمة السلف على عقيدة واحدة:

«فلم يزل الصدر الأول على هذا جميعًا، على أُلفة القلوب واتفاق المذاهب: كتاب اللَّه عصمتهم، وسنة المصطفى إمامهم، لا يستعملون الآراء، ولا يفزعون إِلَى الأهواء، فلم يزل الناس على ذلك، والقلوب بعصمة مولاها مَحروسة، والنفوس عن أهوائها بعنايته مَحبوسة»[1].

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإن دين اللَّه واحد لا يَختلف، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وهذا الطريق الذي ندعو الناس إليه هو أوضح الطرق وأبينها وأغناها وأكملها، فعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك**»[2].

وإذا حاول المرء تكميله أو تزيينه بِما لَم يفعل رسول اللَّه ﷺ ولا أصحابه، فإنَّما يعرج بِهم فِي طرقات، بل فِي أودية المهالك، وهذا الذي سماه رسول اللَّه ﷺ: «**البدعة الضلالة**».

ولذلك اشتد نكير السلف الصالح على من يزيد فِي الدين، أو يوغل فيه برأيه.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إياكم ومُجالسة أصحاب الرأي؛ فإنَّهم أعداء السنة، أعيتهم السنة أن يَحفظوها، ونسوا -وفي رواية: وتفلتت عليهم- الأحاديث أن يعوها، وسئلوا عما لا يعلمون، فاستحيوا أن يقولوا: لا نعلم! فأفتوا برأيهم، فضلُّوا وأضلُّوا كثيرًا، وضلُّوا عن سواء السبيل، إن نبيكم لَم يقبضه اللَّه حَتَّى أغناه بالوحي عن الرأي، ولو كان الرأي أولى من السنة لكان باطن الخفين أولى بالمسح من ظاهرهما**»[3].

---

(١) «الإبانة» - القدر (١/ ٢٣٧).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه (٥)، و(٤٣)، وابن أبي عاصم فِي السنة (٤٨-٤٩)، والحاكم (١/ ٩٦)، وصححه الألباني فِي ظلال الجنة فِي تَخريج السنة (١/ ٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي زمنين فِي أصول السنة (٨)، واللالكائي فِي شرح أصول الاعتقاد (٢٠١)، والخطيب البغدادي فِي الفقيه والمتفقه (٤٧٦-٤٨٠)، وابن عبد البر فِي جامع بيان العلم وفضله (٢٠٠١)، و(٢٠٠٣- ٢٠٠٥)، وابن حزم فِي الإحكام (٦/ ٤٢- ٤٣)، والبيهقي فِي المدخل (٢١٣)، وقوام السنة فِي الحجة (١/ ٢٠٥).
وفي بعض أسانيدها لين، وفي الأخرى انقطاع، لكن يقوِّي بعضها بعضًا، فلعله لهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأسانيد هذه الآثار عن عمر فِي غاية الصحة». إعلام الموقعين (١/ ٤٤).

وذلك لأن الدين مبناه على الاتباع لا الاختراع، والرأي فِي الغالب مذموم؛ لأن كثيرًا من أمور الدين لا يهتدي إليها العقل بمفرده، لاسيما وأن العقول تتفاوت فِي إدراكاتِها، وفي المؤثرات فيها، والرأي قد يُحمد[١].

وقال ابن مسعود ﷺ: «اتبعوا، ولا تبتدعوا، فقد كفيتم، عليكم بالعتيق»[٢].

وقال عبد اللَّه بن عمر ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة!»[٣].

وما دام حديثي عن أثر البدعة فِي قطع الطريق على طالب الصراط المستقيم، فإنني أذكر أثر ابن عباس فِي ذلك، يدل على سعة علم الصحابة، فعن عثمان بن حاضر قال: «دخلت على ابن عباس فقلت: أوصني. فقال: نعم! عليك بتقوى اللَّه، والاستقامة والأثر، اتبع ولا تبتدع»[٤].

فتأمل هذا! فإنه جمع له أمرين هما:

- **تقوى اللَّه**: وهي هنا بِمعنى الإخلاص، لأنَّها قرنت بالاتباع.
- **والاتباع**: الذي هو معنَى الصراط المستقيم، كما سبق.

ثُمَّ حذره مِمَّا يضاد ذلك، ألا وهو البدعة، وهكذا كان عامة كلام السلف جامعًا مانعًا على وجازته.

وقد كان السلف الصالح يشتدون على من يبتغي أقوال الرجال ليزاحم بِها أحكام رسول اللَّه ﷺ، مهما سَمَت مرتبة هؤلاء الرجال الأفاضل.

---

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن القيم فِي إعلام الموقعين (١/ ٦٣).

(٢) رواه وكيع فِي الزهد (٣١٥)، وعبد الرزاق (٢٠٤٦٥)، وأبو خيثمة فِي العلم (٥٤)، وأحمد فِي الزهد (ص٦٢)، والدارمي (١/ ٦٩)، وابن وضاح فِي البدع (٦٠- بدر)، وابن نصر فِي السنة (٧٨)، و(٨٥)، والطبراني (٩/ ٨٧٧٠، ٨٨٤٥)، وابن بطة فِي الإبانة/ الإيمان (١٦٨- ١٦٩)، و(١٧٤-١٧٥)، و(١٩٢)، واللالكائي فِي شرح أصول الاعتقاد (١٠٤)، و(١٠٨)، والبيهقي فِي المدخل (٣٨٧-٣٨٨)، والخطيب فِي الفقيه والمتفقه (١/ ٤٣)، وصححه الألباني فِي تعليقه على كتاب العلم لأبي خيثمة.

(٣) رواه ابن نصر في السنة (٨٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٢٦)، والبيهقي في المدخل (١٩١)، وهو صحيح.

(٤) رواه الدارمي (١/ ٥٣)، وابن وضاح فِي البدع (٦١- بدر)، وابن نصر فِي السنة (٨٣)، وابن بطة فِي الإبانة/ الإيمان (٢٠٠)، و(٢٠٦)، والخطيب فِي الفقيه والمتفقه (١/ ١٧٣) من طريقين تقوي إحداهما الأخرى.

ولا ريب أن التأدب مع أهل العلم ومَحبتهم وتقديمهم على من بعدهم، واتِّهام المرء رأيه مع آرائهم أمر فِي غاية الأهمية، لكن هذا شيء، وتقديم النص من الوحيين بعد اتضاحه شيء آخر.

قال عروة لابن عباس: «ويحَكَ! أضللت الناس! تأمر بالعمرة فِي العشر، وليس فيهن عمرة؟! فقال: يا عري! فَسَل أمك. قال: فإن أبا بكر وعمر لَم يقولا ذلك، ولَهُمَا أعلم برسول اللَّه ﷺ، وأتبع له منك. فقال: من هاهنا تُؤْتَوْنَ! نَجيئكم برسول اللَّه، وتَجيئون بأبي بكر وعمر؟! -وفي طريق: أهما -ويْحك!- آثر عندك أم ما فِي كتاب اللَّه، وما سَنَّ رسول اللَّه ﷺ في أصحابه وفي أمته-».

وفي رواية: «أُراهم سيهلكون؛ أقول: قال النبِي ﷺ، ويقول: نَهى أبو بكر وعمر!!»[(١)].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ **عقب هذا الأثر**: «وفي كلام ابن عباس ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به تقليدًا لإمامه، فإنه يَجب الإنكار عليه بالتغليظ لِمخالفته الدليل»[(٢)].

وقال أيضًا: «وقد عَمَّت البلوى بِهذا المنكر، خصوصًا مِمَّن ينتسب إلَى العلم؛ نصبوا الحبائل فِي الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصَدُّوا عن متابعة الرسول ﷺ، وتعظيم أمره ونَهيه، فمن ذلك قولهم:

«لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع»!.

ويقول: «هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وناسخه ومنسوخه»!.

ونَحو ذلك من الأقوال الَّتِي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن

(١) رواه إسحاق بن راهويه كما فِي المطالب العالية (١٣٠٦- الوطن)، وابن أبي شيبة (٤/ ١٠٣)، ومن طريقه الطبراني (٢٤/ ٩٢)، ورواه أحمد (١/ ٢٥٢، ٣٢٣، ٣٣٧) والطبراني أيضًا (٢٤/ ٩٢)، وفي الأوسط (١/ ٤٢)، والخطيب فِي الفقيه والمتفقه (٣٧٩، ٣٨٠)، وابن عبد البر فِي جامعه (٢٣٧٨)، و(٢٣٨١)، وصححه ابن حجر فِي المطالب، وحسنه الهيثمي فِي المجمع (٣/ ٢٣٤)، وابن مفلح فِي الآداب الشرعية (٢/ ٦٦).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٣٣٨).

الهوى، والاعتماد على من يَجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يُخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله، فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وفهم ذلك أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١]. وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضًا أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك»[١].

وقد بلغ من تعظيم سلفنا الصالح للسنة أنَّهم كانوا يعرضون على السيف من يرُدُّ حديث رسول اللَّه ﷺ، كما فعل الشافعي وقد شكا بشرًا المريسي إلَى القاضي أبي البختري، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ناظرتُ المريسيَّ فِي القرعة[٢]، فقال -أي: المريسي-: يا أبا عبد اللَّه، هذا قمار!! فأتيت أبا البختري فقلت له: سمعت المريسي يقول: القرعة قمار! قال: يا أبا عبد اللَّه، شاهد آخر وأقتله».

وفي رواية: «شاهد آخر وأرفعه على الخشبة وأصلبه»[٣].

* * *

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٣٣٩-٣٤٠).

(٢) هو ما رواه عمران بن حصين: «أن رجلاً أعتق ستة مَملوكين له عند موته، لَم يكن له مال غيرهم، فدعا بِهم رسول اللَّه ﷺ فجزَّأهم ثلاثًا، ثُمَّ أقرع بينهم، فأعتق اثنين، وأرقَّ أربعة، وقال له قولاً شديدًا». رواه مسلم (١٦٦٨).

(٣) رواه الخلال فِي السنة (١٧٣٥)، والخطيب فِي تاريخه (٧/ ٦٠)، وإسناده صحيح.

الأصل الثالث
اتباع الكتاب والسنة
على فهم السلف الصالح



الأصل الثالث
اتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح(١)

إن الذي لَم يَختلف فيه المسلمون قديمًا وحديثًا هو أنَّ الطريق الذي ارتضاه لنا ربنا هو طريق الكتاب والسنة، فإليه يردون ومنه يصدرون، وإن اختلفوا فِي وجوه الاستدلال بِهما.

ذلك؛ لأنَّ اللَّه ضَمِن الاستقامة لمتبع الكتاب فقال على لسان مؤمني الجن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

كما ضمنها لمتبع الرسول ﷺ الذي قال له ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

لكن الذي جعل الفرق الإسلامية تنحرف عن الصراط هو إغفالها ركنًا ثالثًا جاء التنويه به فِي الوحيين جميعًا، ألا وهو فَهْمُ السلف الصالح للكتاب والسنة.

وقد اشتملت سورة الفاتحة على هذه الأركان الثلاثة فِي أكمل بيان:

فقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. اشتمل على ركنَي الكتاب والسنة، كما سبق.

وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]. **اشتمل على فهم السلف لِهذا الصراط، مع أنه لا يشك أحدٌ فِي أنَّ من التزم بالكتاب والسنة فقد اهتدى إلَى الصراط المستقيم، إلا أنه لما كان فهم الناس للكتاب والسنة منه الصحيح ومنه السقيم، اقتضى الأمرُ ركْنًا ثالثًا لرفع الخلاف، ألا وهو تقييدُ فهم الأخلاف بفهم الأسلاف.**

قال ابن القيم: «وتأمل سرًّا بديعًا فِي ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره؛ فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية الَّتِي هي العلم النافع والعمل

---

(١) راجع: الاعتصام للشاطبي (٢/ ٢٥٢).

الصالح»[١].

وقال: «فكلٌّ من كان أعرف للحق وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم، ولا ريب أنَّ أصحاب رسول اللَّه ﷺ ورضي اللَّه عنهم هم أولى بِهذه الصفة من الروافض . . . ولِهذا فسَّر السلف «الصراط المستقيم وأهله» بأبِي بكر وعمر وأصحاب رسول اللَّه ﷺ . . .»[٢].

وفِي هذا تنصيص منه رحمه الله على أن أفضل من أنعم اللَّه عليه بالعلم والعمل هم أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ **لأنَّهم شهدوا التنزيل، وشاهدوا من هدي الرسول الكريم ما فهموا به التأويل السليم**، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**من كان منكم مُسْتنًا فليستنَّ بِمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب مُحمَّد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقها علْمًا، وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم اللَّه لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لَهم فضلهم، واتبعوهم فِي آثارهم، وتَمسكوا بِما استطعتم من أخلاقهم ودينهم؛ فإنَّهم كانوا على الهدي المستقيم**»[٣].

وقال أيضًا: «إن اللَّه نظر فِي قلوب العباد فوجد قلب مُحمَّد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثُمَّ نظر فِي قلوب العباد بعد قلب مُحمَّد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، **فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند اللَّه حسن، وما رأوا سيِّئًا فهو عند اللَّه سيئ**»[٤].

إذن فالمسلمون المقصودون لابن مسعود هم الصحابة رضي الله عنهم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «**أصول السنة عندنا التمسُّك بِما كان عليه أصحاب**

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٢-٧٣)، وقد صح هذا التفسير موقوفًا على أبِي العالية والحسن، ذكره ابن حبان فِي الثقات (٦/ ٢٢٩) تعليقًا، ووصله ابن نصر فِي السنة (٢٧)، وابن جرير فِي تفسيره (١٨٤)، وابن أبِي حاتم فِي تفسيره (١/ ٢١-٢٢)، والحاكم (٢/ ٢٥٩)، وصحَّحه هو والذهبي.

وانظر أيضًا: الإمامة والرد على الرافضة لأبِي نعيم (٧٣)، فقد ورد فيه مثله عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه بنحوه ابن عبد البر فِي جامع البيان (٢/ ٩٧) ورواه أبو نعيم فِي الحلية عن ابن عمر (١/ ٣٠٥).

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٩) وغيره، وهو حسن.

رسول اللَّه ﷺ والاقتداء بِهم»[١].

ومن حظيَ برضا اللَّه من بعدهم فلاقتدائه بِهديهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠][٢].

وقد جاء تَحديد زمن السلف الذين لا تَجوز مُخالفتهم بإحداث فهم لَمْ يفهموه، فِي حديث ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«خيرُ الناس قَرني، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ يَجيءُ قومٌ تسبقُ شهادةُ أحدهم يَمينه، ويَمينه شهادته»**[٣]. متفق عليه[٤].

قال الإمام عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإسلام إنَّما هو فِي كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلفُها من أهل القرون الثلاثة المشهود لَهم بالخيرية على لسان الصادق المصدوق»[٥].

ولِهذا الأصل نظائر وأدلة من الكتاب والسنة، منها قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والشاهد هنا فِي ضمِّ مُجانبة سبيل المؤمنين إلَى مشاقَّة الرسول لاستحقاق هذا الوعيد الشديد، مع أنَّ مشاقَّة الرسول ﷺ وحده كفيلةٌ بذلك كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [مُحمَّد: ٣٢][٦].

---

(١) رواه اللالكائي فِي شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣١٧)، وابن الجوزي فِي مناقب أحمد (ص: ٢٣٠) فِي كلام طويل، وساق الخلال إسناده فِي السنة (١٦٨)، واختصره.

(٢) انظر تخريج استدلال مالك بِهذه الآية فِي إعلام الموقعين لابن القيم (٤/ ٩٤-٩٥).

(٣) ومن ارتاب فِي عدد القرون فليرجع إلَى الصحيحة للألباني رقم (٧٠٠).

(٤) البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٥) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (٥/ ٧٣).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٩٤).

ومنها ما رواه عبد اللَّه بن لحي عن معاوية بن أبِي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول اللَّه ﷺ قام فينا فقال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون فِي النار، وواحدة فِي الجنة، وهي الجماعة**». رواه أبو داود وغيره وهو صحيح، وقد تقدم.

والشاهد هنا فِي وصف الفرقة الناجية بالجماعة، والعدول عن إضافتها إلَى الكتاب والسنة، مع أنَّها لا يُمكن أن تخرج عنهما قط؛ والسر فِي ذلك يكمن فِي التنبيه على الجماعة الَّتِي فهمت نصوص الوحيين، وعملت بِهما على مراد اللَّه ورسوله، ولَم يكن يومئذ جماعة إلا أصحاب رسول اللَّه ﷺ؛ ولذلك صحح أهل العلم -فِي الشواهد- اللفظ الآخر الوارد فِي هذا الحديث من رواية الحاكم وغيره وهو قوله ﷺ فِي وصف الفرقة الناجية: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**».

ومنها ما رواه العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول اللَّه! كأن هذه موعظة موَدِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى اللَّه، والسمع والطاعة، وإنْ عبدًا حبشيًّا؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، **فعليكم بسنتِي، وسنة الخلفاء المهديين الراشدين**، تَمسكوا بِها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». رواه أبو داود وغيره، وهو صحيح، وقد تقدم.

والشاهد هنا فِي الجمع بين اتباع السنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين المهديين[1]، **ثُمَّ تأمل كيف جعل النَّبِي ﷺ كلمته هذه وصيته لأمته من بعده لتعلم صدق القول بأصالة هذا المنهج، ثُمَّ تأمل كيف قابل الاختلاف بالتزام هذا المنهج لتعلم أن ضابط «فهم السلف الصالح»** سبب النجاة من التفرُّق.

قال الشاطبِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقرن عَلَيْهِ السَّلَامُ -كما ترى- سنة الخلفاء الراشدين بسنته، وأن من اتباع سنته اتباع سنتهم، وأن المحدثات خلاف ذلك، ليست منها فِي شيء؛ لأنَّهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما سنُّوا: إما متبعون لسنة نبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسها، وإما متبعون لما فهموا من سنته ﷺ فِي

(١) وإليه أشار ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في لمعة الاعتقاد (برقم ٦-البدر).

الجملة والتفصيل على وجه يَخفى على غيرهم مثله، لا زائدة على ذلك»[١].

وقد جعلتُ هذه النصوص من النظائر والأدلة على تأصيل ما أنا بصدده؛ لأنني وجدت ابن أبِي العز نزع بِها عند شرحه قول الطحاوي: «ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة»[٢].

*** تطبيق:**

لبيان ضرورة تقييد فهم الكتاب بالسنة، وتقييد فهم الكتاب والسنة بِما كان عليه السلف الصالح، أُورد هنا قصة جرت أيام مِحنة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأبيِّن بِها المقصودين فِي آن واحد.

قال الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغني عن المهتدي - رحمه اللَّه تعالى - أنه قال: ما قطع أَبي -يعني: الواثق- إلا شيخ جيء به من المصيصة، فمكث فِي السجن مدة، ثُمَّ إن أبِي ذكره يومًا فقال: علي بالشيخ، فأُتِي به مقيَّدًا، فلما أُوقف بين يديه سلم عليه، فلم يرُدَّ عليه السلام.

فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين! ما استعملت معي أدب اللَّه تعالى، ولا أدب رسوله ﷺ؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]. وأمر النَّبِي ﷺ برد السلام!!

فقال له: وعليك السلام. ثُمَّ قال لابن أبِي دُؤاد: سلْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين! أنا مَحبوس مقيَّد، أُصلي فِي الحبس بتيمم، مُنِعتُ الماء، فمُر بقيودي تُحل، ومر لي بماء أتطهر وأصلي، ثُمَّ سلني.

قال: فأمر فحُل قيده، وأمر له بماء، فتوضأ وصلى، ثُمَّ قال لابن أبِي دؤاد: سله.

فقال الشيخ: المسألة لي، تأمره أن يُجيبنِي، فقال: سل، فأقبل الشيخ على ابن أبِي دؤاد يسأله فقال: أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه، أشيء دعا إليه رسول اللَّه ﷺ؟

(١) الاعتصام (١/ ١٠٤).

(٢) (ص٣٨٢-٣٨٣) ط. المكتب الإسلامي.

قال: لا!

قال: فشيء دعا إليه أبو بكر الصديق ﷺ بعده؟

قال: لا!

قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب ﷺ بعدهما؟

قال: لا!

قال الشيخ: فشيء دعا إليه عثمان بن عفان بعدهم؟

قال: لا!

قال: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب ﷺ بعدهم؟

قال: لا!

قال الشيخ: فشيء لَمْ يدعُ رسول اللَّه ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي -رضي اللَّه تعالى عنهم- تدعو أنت الناس إليه؟! ليس يَخلو أن تقول: علِموه أو جهلوه.

فإن قلت: علِموه وسكتوا عنه. وسِعَنا وإياك ما وَسِع القوم من السكوت.

فإن قلت: جهِلوه وعلمتُه أنا. فيا لُكَعُ بن لكع! يَجهل النَّبِي ﷺ والخلفاء الراشدون -رضي اللَّه تعالى عنهم- شيئًا وتعلمه أنت وأصحابك؟!

قال المهتدي: فرأيت أبِي وثب قائمًا ودخل الحيرى[1]، وجعل ثوبه فِي فيه يضحك، ثُمَّ جعل يقول: صدق، ليس يَخلو من أن نقول: جهلوه أو علموه.

فإن قلنا: علموه وسكتوا عنه. وسعنا من السكوت ما وسع القوم.

---

(١) هكذا فِي بعض النسخ، فلعله: «الحيرى» من الحير، جاء فِي لسان العرب لابن منظور بتحقيق علي شيري (٣/ ٤١٧): «والحير بالفتح: شبه الحظيرة أو الحمى، وأنشد عن بعض الهذليين:

فيا ربَّ حيرى جمادية تَحدَّر فيها الندى الساكبُ

وقال: «فإنه عنى روضة متحيِّرة بالماء» (٣/ ٤١٥).

وفِي بعض النسخ ما يقرأ: «الحبزى»، ولَمْ أجد له معنى، فاللَّه أعلم.

وإن قلنا: جهلوه وعلمته أنت. فيا لكع بن لكع! يَجهل النَّبِي ﷺ وأصحابه -رضي اللَّه تعالى عنهم- شيئًا تعلمه أنت وأصحابك؟!

ثُمَّ قال: يا أحمد! قلت: لبيك، قال: لستُ أعنيك، إنَّما أعني ابن أبِي دُؤاد، فوثب إليه فقال: أعط هذا الشيخ نفقة، وأخرجه عن بلدنا».

وفِي رواية أوردها الذهبِي فِي السير: «... وسقط من عينه ابن أبِي دُؤاد، ولَمْ يَمتحن بعدها أحدًا».

وفِي رواية: «قال المهتدي: فرجعتُ عن هذه المقالة، وأظن أنَّ أبِي رجع عنها منذ ذلك الوقت»[1].

قلت: تأمل! فإن ردَّ الشيخ هذا الأمر العظيم إلَى سيرة السلف الصالح رفع الخلاف مباشرة، وكان سبب هداية الواثق والمهتدي إلَى ما جاء ذكره فِي القصة، فهذا يدلك على أنه تأصيل دقيق، فاحفظه!.

ولذلك لا يزال أهلُ العلم يُردِّدون كلمة إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يُصْلح آخِرَ هذا الأمر إلَّا ما أصلح أوَّله»[2].

تنبيه:

إذا اختلف سلفنا الصالح فِي مسألة ما كان تَحكيم الدليل من الكتاب والسنة هو المسلك الوحيد، لقول اللَّه تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ

---

(١) قال الذهبي: «هذه القصة مليحة، وإن كان فِي طريقها من يُجهل ولَها شاهد» السير (١١/ ٣١٣).

قلت: وقد رواها الآجري فِي الشريعة بلاغًا (١/ ٤٥٥)، ثُمَّ أسندها (رقم: ١٩٣)، وعنه ابن بطة فِي الإبانة الرد على الجهمية (٤٥٢).

وأخرجها أيضًا من طرق أخرى ابن بطة تحت الرقم السابق و(٤٥٣)، والخطيب فِي تاريخ بغداد (٤/ ١٥١-١٥٢)، و(١٠/ ٧٥-٧٩)، وابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص: ٤٧٥-٤٨٠)، وعبد الغني المقدسي فِي المحنة (ص: ١٦٩-١٧٤) و(١٦٧-١٦٩)، وابن قدامة فِي التوابين (ص: ٢١٠-٢١٥).

(٢) وهذه العبارة العظيمة أخذها مالك من شيخه وهب بن كيسان، رواها الجوهري فِي مسند الموطأ (ق ١٣٨ ب)، من طريق إسماعيل بن أبِي أويس، وابن عبد البر فِي التمهيد (٢٣/ ١٠) من طريق أشهب بن عبد العزيز، كلاهما عن مالك قال: «كان وهب بن كيسان يقعد إلينا ولا يقوم حَتَّى يقول لنا: اعلموا ....». وذكرها، وإسنادها صحيح، ودونك هذا التكرار.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وكلمة «شيء» هنا نكرةٌ فِي سياق الشرط، فتعم كل اختلاف التضاد فِي الأصول والفروع، كما أشار إليه العلامة مُحمَّد الأمين الشنقيطي[(١)].

وقال ابن القيم: «**ولو لَمْ يكن فِي كتاب اللَّه وسنة رسوله بيانُ حكم ما تنازعوا فيه ولَمْ يكن كافيًا، لَمْ يأمر بالرَّدِّ إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النِّزاع إلَى من لا يوجدُ عنده فصلُ النِّزاع**»[(٢)].

* * *

(١) أضواء البيان (١/ ٣٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٩).



الأصل الرابع:
نيل السؤدد بالعلم



الأصل الرابع:
نيل السؤدد بالعلم

هذا الفصل من أنفس ما فِي هذه الأصول الستة؛ لأن الغرض منه هو تبيان أصل العمل الذي ينبغي أن تكرَّس له الجهود، فإن قومًا رأوا النشاط الرهيب الذي تَجتهد فيه قُوى الكفر والضلال، فظنوا أن سيادتَهم ترجع إليهم بِمجرد مقابلة نشاطهم بنشاط أقوى منه، فوجَّهوا كل ما يَملكون من وسائل لمجاراتِهم وأهملوا العلم الشرعي إهمالًا فاحشًا! والحقيقة أنَّهم مهما أحكموا التنظيم وأحسنوا التدبير وكثَّفوا النشاط وحفظوا من مكائد العدو، فلن يُكتب لَهم سؤدد ولا رفعة حتَّى يؤسِّسوا عملهم على العلم ويعرفوا له ولأهله قدره؛ قال اللَّه تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «بالعلم»[١].

وهذا أخذه مالك من شيخه زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت زيد بن أسلم يقول فِي هذه الآية: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] «إنه العلم؛ يرفع اللَّه به من يشاء فِي الدنيا»[٢].

وهذه الرفعة تكون فِي الدنيا قبل الآخرة؛ كما قال اللَّه تعالى عن اصطفائه طالوت لسيادة الملأ من بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

---

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ٢٧٢).

(٢) رواه ابن أبِي حاتم فِي تفسيره (٤/ ١٣٣٥)، و(٧/ ٢١٧٦)، وأبو الفضل الزهري فِي حديثه (٥٤٥) وابن عبد البر فِي جامع بيان العلم وفضله (١٩٠١)، وهو صحيح.

وفِي صحيح مسلم[1] عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان، وكان عمر يستعمله على مكة[2]، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى[3] من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب اللَّه ﷻ، وإنه عالم بالفرائض[4]، قال عمر: أما إنَّ نبيكم ﷺ قال: «**إن اللَّه يرفع بِهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين**».

ولذلك أخبر اللَّه ﷻ أنه رفع الربانيين من بني إسرائيل حَتَّى جعلهم حكَّامًا عليهم ينفِّذون فيهم أمر اللَّه فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهؤلاء الربانيون الممكَّن لَهم جاء وصفهم بالعلم والتعليم، قال اللَّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وفِي كتاب اللَّه ﷻ آيتان تشابَهتا فِي اللفظ، يقول اللَّه فِي الأولى عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وفِي الثانية يقول عن يوسف ﷺ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وفِي هذا سرٌّ بديعٌ من أسرار الكتاب العزيز ذكره ابن تيمية فِي كلام نفيس جدًّا، حيث يقول:

«**ذكر اللَّه أنه يرفع درجات من يشاء فِي قصة مناظرة إبراهيم، وفِي قصة احتيال يوسف، ولِهذا قال السلف: بالعلم؛ فإن سياق الآيات يدل عليه، فقصة إبراهيم فِي**

(١) برقم: (٨١٧)، ورواه أيضًا ابن ماجه (٢١٨).

(٢) أي: جعله واليًا عليها.

(٣) أي: عبد مملوك.

(٤) أي: عالم بالمواريث، وفِي طريق زيادة: «قاض».

العلم بالحجة والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين، وقصة يوسف فِي العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب.

فالأول: علم بِما يدفع المضار فِي الدين.

والثاني: علم بِما يَجلب المنافع.

أو يقال: الأول: هو العلم بِما يدفع المضرة عن الدين، ويَجلب منفعته.

والثانِي: علم بِما يدفع المضرة عن الدنيا، ويَجلب منفعتها.

أو يقال: قصة إبراهيم فِي علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها.

وقصة يوسف فِي علم الأفعال عند الحاجة إليها، فالحاجة جلب المنفعة ودفع المضرة قد تكون إلَى القول، وقد تكون . . .[1].

ولِهذا كان المقصِّرون عن علم الحجج والدلالات وعلم السياسة والأمارات مقهورين مع هذين الصنفين تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل أو الدنيا بالظلم، وتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض فِي الدين والدنيا، وتارة يعيشون فِي ظلهم فِي مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ولا والٍ يظلمهم، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع، والسياسة الدافعة للظلم . . .»[2].

فدار أمر الرئاسة الدينية والدنيوية على العلم؛ لأنه أصل لَهما.

ولذلك قال ابن تيمية أيضًا: «وذلك أن اللَّه يقول فِي كتابه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فأخبر أنه أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنه أنزل الحديد كما ذكره.

فقوام الدين بالكتاب الهادي والسيف الناصر ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. **والكتاب هو الأصلُ**، ولِهذا أول ما بعث اللَّه رسوله أنزل عليه الكتاب،

(١) بياض بالأصل.
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٣-٤٩٤).

ومكث بمكة لَمْ يأمره بالسيف حَتَّى هاجر وصار له أعوانٌ على الجهاد»[١].

إذن فالذين يتصوَّرون قيام دولة الإسلام بِمجرد عاطفة إسلامية، وفكر مُجرد عن حجة الشرع يسمُّونه «فكرًا إسلاميًا!»، ونتفٍ من العلم يسمُّونَها «ثقافة إسلامية!» وأن التعليم مرحلة قادمة بعدها، فهؤلاء طالبو سرابٍ؛ لأنَّهم يتخيَّلونَها بلا قوة ولا أسباب.

وأُولى القوَّتين قوةُ الدِّين الذي عليه وعد اللَّه المؤمنين بالنصر فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

ولِهذا قال ابن القيم: «ولَمَّا كان جهادُ أعداء اللَّه فِي الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه فِي ذات اللَّه، كما قال النَّبِي ﷺ: «المجاهدُ من جاهد نفسه فِي طاعة اللَّه، والمهاجرُ من هجر ما نَهى اللَّه عنه»[٢]. كان جهادُ النفس مقدَّمًا على جهاد العدو فِي الخارج وأصلًا له؛ فإنه من لَمْ يُجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أُمرت به وتترك ما نُهيت عنه ويحاربْها فِي اللَّه، لَمْ يمكنه جهادُ عدوّه فِي الخارج، فكيف يُمكنه جهاد عدوّه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلط عليه، لَمْ يُجاهده ولَمْ يُحاربه فِي اللَّه؟! بل لا يمكنه الخروج إلَى عدوّه حَتَّى يُجاهد نفسه على الخروج.

فهذان عدوان قد امتُحن العبدُ بِجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالثٌ، لا يُمكنه جهادهما إلا بِجهاده، وهو واقفٌ بينهما يثبِّطُ العبد عن جهادهما ويُخذلُه ويرجف به، ولا يزال يُخيِّل له ما فِي جهادهما من المشاقِّ وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يُجاهد ذَيْنك العدوَّيْن إلا بِجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]. والأمر باتِّخاذه عدوًّا تنبيهٌ على استفراغ الوسع فِي مُحاربته ومُجاهدته، كأنه عدوٌّ لا يفتر ولا يقصر عن مُحاربة العبد على عدد الأنفاس»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٤).

وأحبّ أن أُنبِّه القارئ هنا إلَى أنَّني وجدتُ من ابتُلي بفكر ثوري يبتر كلام ابن تيمية هذا عند آية الفرقان؛ لأن ما بعدها يُحطم له المراد من استغلال كلام الشيخ! فتنبه!

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢١) وغيره وهو صحيح.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦).

هذا الكلام فِي غاية الجودة والوضوح، وهو تصحيح لمنهج الذين يرمون غيرهم بالحجارة، وبيوتُهم من زجاج! وفِي الوقت نفسه يُعظمون الأسباب المادية حَتَّى يروا أنَّ عدوَّهم تَمكَّن لقوته، والحق أنه لا يدخل عليهم العدوُّ بيوتَهم إلا إذا وَهَى بنيانُها؛ أي لا ينهزم المسلمون لقوة عدوهم ولكن لضعف إيْمانِهم، حَتَّى ولو عريت أيديهم من الأسباب -بعد بذل الوسع- كفاهم اللَّه ما نابَهم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن سنة اللَّه أنَّ من لَمْ يُمْكن المؤمنون أن يعيذوه[1] من الذين يؤذون اللَّه ورسوله؛ فإن اللَّه سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه إياه، كما قدَّمنا بعض ذلك فِي قصة الكاتب المفتري، وكما قال سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥]»[2].

وقال ابن القيم: «تاللَّه! ما عدا عليك العدوُّ إلا بعد أن تولَّى عنك الولِيُّ، فلا تظن أن الشيطان غلب، ولكن الحافظ أعرض»[3].

وقد عرفت أنك تُحْرَم ولاء ربك إذا تركت المأمور، وركبت المحظور، كما أنك منصور بِحفظك اللَّه فِي أمره ونَهيه، فعاد الأصل إلَى العلم؛ لأنه لا يُعرف الأمر والنهي إلا به.

لطيفة:

عن الزبير بن عدي قال: دخلنا على أنس بن مالك قال: «فشكونا إليه ما نلقى من الحجَّاج، فقال: ما من عام إلا والذي بعده شرٌّ منه حَتَّى تلقوا ربّكم. سمعت هذا من نبيكم»[4].

قال ابن حجر: «وقد استُشكل هذا الإطلاق مع أن بعض الأزمنة تكون فِي الشر دون الَّتِي قبلها، ولو لَمْ يكن فِي ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج

---

(١) تصحف فِي المطبوع إلَى: «أن يعذبوه» وهو غير مستقيم، وما أثبته أعلاه هو الموافق للأصول المخطوطة؛ كما فِي المطبوع حديثًا (٢/ ٣٥٧).

(٢) الصارم المسلول (ص: ١٦٤).

(٣) الفوائد (ص: ٧٩).

(٤) رواه أحمد (٣/ ١١٧)، والبخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٦).

بيسير، وقد اشتهر الخير الذي كان فِي زمن عمر بن عبد العزيز . . . وأجاب بعضهم أنَّ المراد بالتفضيل تفضيل مَجموع العصر على مَجموع العصر، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة فِي الأحياء، وفِي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده لقوله ﷺ: «**خير القرون قرني. . .**». وهو فِي الصحيحين»[١].

ثُمَّ قال: «ثُمَّ وجدت عن عبد اللَّه بن مسعود التصريح بالمراد، وهو أولى بالاتباع، فأخرج يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد بن وهب قال: سمعت عبد اللَّه بن مسعود يقول: «**لا يأتِي عليكم يوم إلا وهو شرٌّ من اليوم الذي قبله حَتَّى تقوم الساعة، لست أعني رخاء من العيش يصيبه، ولا مالًا يفيده، ولكن لا يأتِي عليكم يوم إلا وهو أقل علمًا من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس، فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون**».

ومن طريق الشعبي عن مسروق عنه قال: «**لا يأتِي عليكم زمان إلا وهو شر مِمَّا كان قبله، أما إنِّي لا أعني أميرًا خيرًا من أمير، ولا عامًا خيرًا من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثُمَّ لا تَجدون منهم خلفاء، ويَجيء قوم يفتون برأيهم**»[٢].

قلت: رفعُ الإشكال بالأثر هو قرة عيون أهل الأثر، خاصة وهو جار على الأصول؛ لأن غالب الخلق لِرَحم المال والسلطان وصول، ألَم تسمع اللَّه تعالى يُخبر عن أهل الشمال حسرتَهم قائلين: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

ولو تأمَّلت فتنة الحركات الإسلامية -فضلًا عن غيرها- لوجدتَها مجموعة فِي هاتين النعرتين:

- **تصوُّرُ أن خيرية أمة على أخرى تابعة لخيريَّة حكَّامها.**
- **أو وفرة اقتصادها.**

---

(١) لفظ الصحيحين: «**خير الناس قرني . . .**». وقد أشار الشيخ الألباني فِي تعليقه على التنكيل للمعلمي (٢/ ٢٢٣) إلَى أنه لا أصل للفظ الذي ساقه الحافظ هنا.

(٢) الفتح (١٣/ ٢١) وهناك حسَّن ابن حجر الأثر؛ ورواه الفسوي كما فِي ذيل المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٩٣)، وابن عبد البر فِي جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٣٦) وغيرهما.

ألا ترى أنَّ أكثرهم لا يردُّون من عرش الملك يَدَ لامس، ولو كانت طماعة من ديمقراطية الوساوس! وآخرين يرون أن عودة عز المسلمين مرهونة بالتفوق الحضاري، ولذلك لا يبرحون عليه عاكفين!.

وهذا يبيِّن لك سر عناية ابن مسعود بِمعالجتهما دون غيرهما، وتاللَّه إنه لفقه النفس الذي فتح اللَّه به عليه، فلتعرف -أخا الإسلام- للسلف فضلهم، واستمسك بغرزهم تسترح من شبهات بُنَيات الطريق.

وأخيرًا: إلَى العلم! يا من ينشد عز الإسلام، فعن تميم الداري قال: تطاول الناس فِي البناء فِي زمن عمر، فقال عمر: «يا معشر العريب! الأرض الأرض! إنه لا إسلام إلا بِجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، **فمن سوَّده قومه على الفقه كان حياة له ولَهم، ومن سوَّده قومه على غير فقه كان هلاكًا له ولَهم**»[1].

وعن الحسن قال: «كانوا يقولون: **موت العالِم ثُلْمة فِي الإسلام لا يسدُّها شيء ما اختلف الليل والنهار**»[2].

وعن هلال بن خباب قال: سألت سعيد بن جبير قلت: «يا أبا عبد اللَّه! ما علامة هلاك الناس؟ قال: **إذا هلك علماؤهم**»[3].

صِمَام الأمان من الكفر والهزيمة باتِّباع الكتاب والسنة

لست أعني بِهذا الفصل ظاهره المتبادر إلَى الذهن فحسب؛ لأنه شيء معلوم للمسلمين علمًا نظريًّا على الأقل، ولكنه كلمة إلَى أولئك الذين لَمْ يقنعوا بدعوة الكتاب والسنة، حين رأوا تألُّب قُوَى الكفر والنفاق على ديار المسلمين، من يوم الأندلس

---

(١) رواه الدارمي رقم (٢٤١).

(٢) المصدر السابق رقم (٣٢٤)، وأحمد فِي الزهد (ص: ٢٦٢)، وابن عبد البر فِي جامع البيان (١/ ١٥٣)، وهو صحيح، فإنَّ هشام بن حسان تابعه أبو الأشهب جعفر بن حيان العطاردي كما فِي المصدر الأخير. وفِي شرح السنة للبغوي أنه من قول ابن مسعود.

(٣) رواه ابن سعد (٦/ ٢٦٢)، وابن أبِي شيبة (١٥/ ٤٠)، والدارمي (٢٥١)، وأبو نعيم (٤/ ٢٧٦)، والخطيب فِي الفقيه والمتفقه (١٤٨)، وابن عبد البر فِي جامعه (١/ ١٥٣)، وهو حسن، وإن كان فيه هلال بن خباب؛ لأنَّ هلالاً هو السائل، ومثلُ هذا يُضبط عادة.

وفلسطين الفقيدتين، إلَى يوم البوسنة والهرسك الجريحتين، وازداد المسلمون وهنًا على وهن حين قلَّت عنايتهم بِمصدر قوتِهم: الكتاب والسنة، وهانوا على اللَّه حين ساء ظنهم بِهما، إذ تصوَّروا ضعف أثرهما فِي النفوس، وأن دعوة المسجد قاصرة عن بعث الأمة إلا ببطء لا يكافئ النشاط الرهيب والمتنوِّع الوسائل الذي يقوم به الشيوعيون واليهود والنصارى . . .

وهذه الدعوى -إن كان فيها حق- فيكفي أصحابُها إثْمًا أن صرفوا وجوه النشء عن العكوف على الوحيين حفظًا وتعلُّمًا وتعليمًا، ولئن حبس بعضُهم أنفسهم لتعليم الناس دينهم، فقلَّما ينزعون بآية أو حديث إلا تبرُّكًا، وإلا فحسن ظنهم بكلامهم زهَّدهم فِي كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ.

وواللَّه! ثُمَّ واللَّه! ثُمَّ واللَّه إن أحدهم ليجد فِي أُنشودة من الخشوع، ما يفقده مع كلام رب الأرباب، ولو كانت الطير لكانت مَحشورة كل له أواب.

أين هم الذين يعلمون القرآن بتفسيره الأثري؟!

أين هم الذين أحيوا طريقة السلف فِي تسميع الحديث النبوي، والتقليل من الكلام البشري؟!

ألا تعلمون أن الكفار لا يقدرون عليكم ما دمتم تتلُون الوحيين؟ قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

وفِي هذا السياق الكريم فائدتان هما:

الأولَى: عصمة أتباع الوحيين من الكفر، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني أن الكفر بعيدٌ منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات اللَّه تنزل على رسوله ليلًا ونَهارًا، وهو يتلوها عليكم ويُبلِّغها إليكم»(١).

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٩٧) ط. دار الفكر.

والثانية: أن اللَّه تعالى اقتصر على ذكر أعظم كيد يدبِّره الكفار للمسلمين وهو إرادة تكفيرهم، كما قال سبحانه فِي الآية الأخرى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فكأن اللَّه يقول: مهما كان مكرهم الكبار الذي تزول منه الجبال قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. فإن إيمانكم لا يزول ما أقمتم على تلاوة الوحي كتابًا وسنة.

وليس هذا غريبًا على من أيقن بقلبه أن اللَّه جعل معين الحياة فِي الوحي فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأعظم الحياتَيْن حياةُ القلب، وأحيا الناس أَتْبَعُهم للوحي، وهو آمَنُهم من الضلال، وبِهذا يدق فهمك لقول الرسول ﷺ: «تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب اللَّه وسنتي، ولن يتفرقا حَتَّى يردا عليَّ الحوض». رواه الحاكم ومالك وهو حسن[(١)].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «**لست تاركًا شيئًا كان رسول اللَّه ﷺ يعمل به إلا عملتُ به، فإنِّي أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ**»[(٢)].

فهذا صدِّيق الأمة يَخشى على نفسه الانحراف عن الصراط المستقيم إن هو فرَّط فِي شيء من هدي النَّبِي ﷺ -مع أنه كان شديد التمسك بِما دقَّ وجلَّ من سنة نبيه ﷺ- فكيف قرَّت أعْيُن المبتدعة وهدأت جفونُهم، وقد روى الشيخان عن أبِي هريرة أنه قال: «لما توفي رسول اللَّه ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده، كفر من كفر من العرب، قال عمر لأبِي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول اللَّه ﷺ: **أُمرتُ أن أقاتل الناس حَتَّى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فمن قال: لا إله إلا اللَّه عصم منِّي ماله ونفسه إلا بِحقه وحسابه على اللَّه**. فقال: واللَّه! لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللَّه لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه إلَى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فواللَّه! ما

(١) سبق تَخريْجه.

(٢) رواه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

هو إلا أن رأيت اللَّه قد شرح صدر أبِي بكر للقتال فعرفتُ أنه الحق»[١].

فتأمل هذا الحرص الشديد على أداء الواجب بكل تفاصيله الَّتِي كانت على عهد رسول اللَّه ﷺ، ولو كانت فِي تقديْم أحقر شيء.

ولما كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أتبع الخلق للوحي اقترن بِهم من تأييد اللَّه أكمله، كما قال اللَّه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١][٢].

ومن كان لَهم متَّبعًا كان له مثل ما لَهم من التأييد والنصرة، قال اللَّه تعالى لموسى وهارون -صلى اللَّه عليهما وسلم- ولأتباعهما: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. وقال لعيسى ﷺ ولأتباعه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فلما كان للنصارى نصيبٌ ما مِن اتِّباعه؛ كانوا فوق اليهود إلَى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلَى يوم القيامة**»[٣].

وقال ابن تيمية: «**ولِهذا كل من كان متبعًا للرسول كان اللَّه معه بحسب هذا الاتباع قال اللَّه تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. **أي: حسبك وحسب من اتَّبعك، فكلُّ من اتبع الرسول من جميع المؤمنين فاللَّه حسبه، وهذا معنى كون اللَّه معه، والكفاية المطلقة مع الاتِّباع المطلق، والناقصة مع الناقص، وإذا كان بعض المؤمنين به المتبعين له قد حصل له من يعاديه على ذلك فاللَّه حسبه، وهو معه، وله نصيب من قوله:** ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. **فإن هذا قلبه**

(١) البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٣٢).

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح لابن تيمية (٢/ ١٧٩) ط. دار العاصمة.

(٣) إغاثة اللَّهفان (٢/ ١٩٧-١٩٨)، وانظر: الجواب الصحيح (٢/ ١٧٨).

موافقٌ للرسول وإن لَمْ يكن صحبه ببدنه، والأصل فِي هذا القلب، كما فِي الصحيحين عن النَّبِي ﷺ أنه قال: «إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1]. فهؤلاء بقلوبِهم كانوا مع النَّبِي ﷺ وأصحابه الغزاة، فلهم معنى صُحبته فِي الغزاة، فاللَّه معهم بحسب تلك الصحبة المعنوية»[2].

وقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإن فِي القرآن ما يدل على أنَّهم صحبوهم بباطنهم، وذلك أنَّهم حين أتوا ليحملهم النَّبِي ﷺ معه إلَى الجهاد ردَّهم؛ لأنه لا يَملك ما يَحملهم عليه، رجعوا وقلوبُهم متحرِّقة وعيونُهم دامعة على ذلك حَتَّى وصفهم اللَّه بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو انفرد الرجل فِي بعض الأمصار والأعصار بِحق جاء به الرسول، ولَمْ تنصره الناس عليه، فإن اللَّه معه، وله نصيب من قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فإن نصر الرسول هو نصر دينه الذي جاء به حيث كان ومتى كان، ومن وافقه فهو صاحبه عليه فِي المعنى، فإذا قام به ذلك الصاحب كما أمر اللَّه فإن اللَّه مع ما جاء به الرسول ومع ذلك القائم به، وهذا المتبع له: حسبه اللَّه، وهو حسبُ الرسول كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]»[3].

وعن ابن مسعود قال: «صلى رسول اللَّه ﷺ العشاء ثُمَّ انصرف، فأخذ بيد عبد اللَّه ابن مسعود حَتَّى خرج به إلَى بطحاء مكة فأجلسه ثُمَّ خطَّ عليه خطًّا ثُمَّ قال: لا تبرحن خطك فإنه سينتهي إليك رجالٌ، فلا تكلمهم فإنَّهم لا يكلمونك. قال: ثُمَّ مضى

(١) البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١)، وفِي صحيح مسلم زيادة: «إلا شَرِكوكم فِي الأجر».
(٢) منهاج السنة (٨/ ٤٨٧-٤٨٨) ط. جامعة الإمام مُحمَّد بن سعود.
(٣) المصدر السابق.

رسول اللَّه ﷺ حيث أراد، فبينا أنا جالس فِي خطي إذ أتانِي رجال كأنَّهم الزُّط[١] أشعارهم وأجسامهم، لا أرى عورة ولا أرى قشرًا، **وينتهون إليّ لا يُجاوزون الخط**، ثُمَّ يصدرون إلَى رسول اللَّه ﷺ، حَتَّى إذا كان من آخر الليل، لكن رسول اللَّه ﷺ قد جاءنِي وأنا جالس، فقال: **لقد أرانِي[٢]منذ الليلة**. ثُمَّ دخل علي فِي خطي فتوسَّد فخذي، فرقد وكان رسول اللَّه ﷺ إذا رقد نفخ، فبيْنا أنا قاعد ورسول اللَّه ﷺ متوسد فخذي، إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض، اللَّه أعلم ما بِهم من الجمال، فانتهوا إلي، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول اللَّه ﷺ وطائفة منهم عند رجليه، ثُمَّ قالوا بينهم: ما رأينا عبدًا قط أوتي مثل ما أوتي هذا النَّبِي: إن عينيه تنامان وقلبه يقظان، اضربوا له مثلًا مَثَلَ سيِّد بنَى قصرًا، ثُمَّ جعل مأدبة فدعا الناس إلَى طعامه وشرابه، فمن أجابه أكل من طعامه، وشرب من شرابه، ومن لَمْ يُجبه عاقبه، أو قال: عذَّبه. ثُمَّ ارتفعوا، واستيقظ رسول اللَّه ﷺ عند ذلك فقال: **سمعت ما قال هؤلاء؟ وهل تدري من هؤلاء؟ قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: هم الملائكة. فتدري المثل الذي ضربوا؟ قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: المثل الذي ضربوا: الرحمن -تبارك وتعالى- بنَى الجنة، ودعا إليها عباده، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لَمْ يُجبه عاقبه، أو عذبه»**[٣].

فأنت ترى فِي هذه القصة العظيمة أن استجابة ابن مسعود لرسول اللَّه ﷺ حين أمره بلزوم مكانه دفعت عنه شر قوم جاءوه فِي أبشع صورة، مع أنه لَمْ يكن بينه وبينهم سوى خط لو جاءت عليه الريح لعفى أثره، لكنه ليس كبقية الخطوط، إنه خط السنة، من لزمه كفاه اللَّه ما نابه.

وإذ قد بيَّنتُ أدلة تثبيت اللَّه لأمة المتابعة ونصره إياها، فلا بأس أن أسوق هنا قصة تشهد للأمرين جميعًا، وفيها منقبة عظيمة لأبِي بكر الذي حفظ اللَّه به الدين ونصره بعد رسول اللَّه ﷺ، حَتَّى قال أبو هريرة ﷺ: «واللَّه الذي لا إله إلا هو لولا أبو بكر استُخلف ما عُبد اللَّه. ثُمَّ قال الثانية، ثُمَّ قال الثالثة، فقيل له: مه يا أبا هريرة! فقال: إن

(١) الزط: قوم من السودان أو الحبشة فِي سوادهم.
(٢) أرانِي منذ الليلة: أي لَمْ أنَم منذ الليلة.
(٣) صحيح سنن الترمذي للألباني رقم (٢٢٩٦).

رسول اللَّه ﷺ وَجَّه أسامة بن زيد فِي سبعمائة إِلَى الشام، فلما نزل بذي خشب قُبض رسول اللَّه ﷺ وارتدت العرب حول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقالوا: يا أبا بكر! رُدَّ هؤلاء، توجِّه هؤلاء إِلَى الروم، وقد ارتدَّت العرب حول المدينة؟! فقال: **والذي لا إله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول اللَّه ﷺ ما رددت جيشًا وجَّهه رسول اللَّه ﷺ، ولا حللت لواء عقده رسول اللَّه. فوجَّه أسامة، فجعل لا يَمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أنَّ لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حَتَّى يلقوا الروم. فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام**»[1].

هذا هو تمسك أبِي بكر بالسنة على الرغم من فاجعة موت رسول اللَّه ﷺ وفاقرة ارتداد العرب، أضف إليهما تثبيط الناس له انطلاقًا من العقل الذي يقضي بِما قضوا به، ولكن الشرع الذي تعلَّمه أبو بكر من النَّبِي ﷺ هو الذي هداه إِلَى ما شحَّت به قرائحُهم، ألا وهو خوفه رضي الله عنه من تأخير ما قدَّمه رسول اللَّه ﷺ، فكانت عاقبة التمسك بالسنة الانتصار على العدو والثبات على الإسلام.

تنبيه:

قال الشيخ مُحمَّد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميعهم، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أُمروا منهم بالقتال فِي سبيل اللَّه . . . »[2].

ولِهذا قرر العلماء أن المؤمنين المستضعفين اليوم فِي مُجتمعاتِهم، الذين لا يؤمرون بالقتال، هم منتصرون بالحجة العلمية الَّتِي تدمغ كل باطل وجدال، وأما الذين لَهم القوة والسلطان فيؤمرون به لتتأيَّد الحجة بالسنان، وعلى هذا فالحجة العلمية غالبة فِي كل زمان، والحمد للَّه على هذا.

(١) العواصم من القواصم لابن العربي (ص: ٦٣)، وانظر إن شئت التوسع: تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام، والإمتاع للمقريزي.

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ٣٥٣) وما بعدها.

ولما كان أهل الحديث أقوى الناس حجة؛ لأنَّهم أعلمهم بالقرآن كما قال عمر بن الخطاب: «إن ناسًا يُجادلونكم بشُبَه القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب اللَّه ﷻ»[١]. ولَمَّا كانوا أعلمهم بِهدي النَّبي ﷺ، كانوا أتبعهم للكتاب والسنة، فلا يستغربنَّ خلفي أن تَجتمع كلمة أهل العلم على تفسير الطائفة المنصورة بأهل الحديث فِي قوله ﷺ: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يفقِّهه فِي الدين . . . ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . . .**[٢]»[٣].

مع أنه لا يَخفى على الحصيف ارتباط الجملة الأولى -الَّتِي هي الفقه فِي الدين- بالأخرى -الَّتِي هي انتصار هذه الطائفة- وهو من جوامع كلمه ﷺ[٤].

تهديد مخالف الرسول بالزيغ أو الكفر

ما دام قد كتب اللَّه لأتباع نبيه ﷺ الثبات على الدين، فقد جعل مُخالفيه على خطر من دينهم فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦١-٦٢].

قال ابن القيم: «توعَّدهم بأنَّهم إذا أصابتهم مصيبة فِي عقولِهم وأديانِهم وبصائرهم وأبدانِهم وأموالِهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول، وتَحكيم غيره، والتحاكم إليه كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. اعتذروا بأنَّهم إنَّما قصدوا الإحسان والتوفيق . . .»[٥].

وثالثة الأثافي أن هذه المصيبة قد تصيب من دين المرء مقتلًا حَتَّى يكفر، قال ابن

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٤٩)، والآجري فِي الشريعة (٩٣)، وابن بطة فِي الإبانة/ الإيمان (٨٣)، وغيرهم.
(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).
(٣) انظر: الجواب الصحيح (٢/ ١٨٠).
(٤) راجع: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي، والصحيحة للألباني (٢٧٠)، وأهل الحديث هم الطائفة المنصورة الناجية للشيخ ربيع بن هادي المدخلي.
(٥) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

تيمية عند قول اللّه ﷻ : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]: «أمر من خالف أمره أن يَحذر الفتنة، والفتنة: الرِّدة والكفر، قال سبحانه: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]. . . . .

قال الإمام أحمد فِي رواية الفضل بن زياد: «نظرتُ فِي المصحف فوجدتُ طاعة الرسول ﷺ فِي ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثُمَّ جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. وجعل يكررها ويقول: **وما الفتنة؟** الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فِي قلبه شيء من الزيغ، فيزيغُ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]».

وقال أبو طالب المشكاني: وقيل له: إن قومًا يَدَعُون الحديث، ويذهبون إلَى رأي سفيان؟ فقال: «أعجب لقوم سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته، يَدَعُونه ويذهبون إلَى رأي سفيان وغيره، قال اللّه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. ! وتدري **ما الفتنة؟** الكفر، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]. فيدعون الحديث عن رسول اللّه ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلَى الرأي، فإذا كان المخالف عن أمره قد حُذِّر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلَى الكفر أو العذاب الأليم . . . »[1].

ومن الكلمات السائرة عند السلف قولهم: «**أسرع الناس ردَّة أصحابُ الأهواء**»[2].

ولما كان أصل كفر أهل الكتاب من جهة مُخالفة الرسل قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١].

وفِي هذا السياق الكريم فائدتان:

الأولى: أن سبب كفرهم هو تعظيمهم علماءهم حَتَّى غضوا من حق اللّه ورسوله فِي التحاكم إليهما، فعن عدي بن حاتم قال: أتيتُ النَّبِي ﷺ وفِي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**يا عديّ! اطرح عنك هذا الوثن**». وسمعته يقرأ من سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟

(١) الصارم المسلول (ص: ٥٦-٥٧) والأثر الأول عن أحمد تجده في الإبانة لابن بطة رقم (٩٧).

(٢) صح عن ابن سيرين كما في المعرفة والتاريخ للفسوي (٣/ ٣٨٨-٣٨٩) والإبانة لابن بطة (٣٥٣) وشرح أصول الاعتقاد للالكائي (٢٣٤).

﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: «**أما إنَّهم لَمْ يكونوا يعبدونَهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلوه، وإذا حرَّموا عليهم شيئًا حرَّموه**»(١).

والثانية: أن فِي الاقتصار على التنديد بصنيع اليهود والنصارى تنبيهًا على قسمي المخالفة للرسل لا ثالث لَهما، وهما:

- **التفريط**: الذي هو النصيب الأوفر لليهود مؤذي الأنبياء وقَتَلَتهم.
- **الإفراط**: الذي هو النصيب الأوفر للنصارى ذوي الغلو.

وهذا من إعجاز القرآن العظيم، وقد جاء التحذير منهما مقترنين فِي حديث واحد، هو قول الرسول ﷺ: «**دعونِي ما تركتكم؛ فإنَّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نَهيتُكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»(٢).

فقوله: «**بكثرة سؤالهم**». فِي الإفراط والغلو.

وقوله: «**واختلافهم على أنبيائهم**». فِي التفريط والتقصير.

ولذلك أورده البخاري فِي كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»، وهو من جوامع كلمه ﷺ.

ولما كانت المتابعة بِهذه الدقة لَمْ يمدح اللَّه تعالى المؤمنين بِمجردها، بل بإحسانِها فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. أي هي متابعة ظاهرة وباطنة، ومن كان كذلك فأخذ منه الشيطان نصيبًا من الطاعة، أسرع الأوبة ونفعته التوبة؛ كما وصف اللَّه المهاجرين والأنصار بذلك؛ لأن مُخالفتهم لَمْ تكن متأصِّلة فِي قلوبِهم، وسر هذه العناية الربانية بِهم ما عُرفوا به من المتابعة التامة.

فتأمَّل إخبار اللَّه عن حفظ قلوبِهم من الزيغ بسبب صدقهم فِي المتابعة فِي وقت

(١) صحيح سنن الترمذي للألباني رقم (٢٤٧١).
(٢) البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

العسرة قال اللَّه ﷻ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:١١٧]. فليحذر الذين هم على ظاهر السنة دون باطنها، وكذا العكس.

تعجيل الهزيمة لمخالفي الرسل

كما أن أتباع الرسل منصورون، فإن مُخالفيهم مَخذولون قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]. وقال رسول اللَّه ﷺ: «... وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمري»[١].

وتفسيره ما قاله ابن تيمية: «والبدعةُ مقرونةٌ بالفرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة فيقال: أهل السنة والجماعة. كما يقال: أهل البدعة والفرقة»[٢].

وقد أجمع العقلاء على أن أعظم أسباب الهزيمة هو التنازع، وأشده -ولا شك- التنازع فِي الدين، ولما كان التنازع ناشئًا عن التقصير فِي طاعة اللَّه ورسوله قرن اللَّه بينهما فِي آية واحدة، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولما كان الالتزام بالسنة هو سفينة النجاة فِي بحر الاختلاف، أمر النَّبِي ﷺ بلزومها عند وقوعه فقال: «... **وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتِي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تَمسكوا بِها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور**»[٣].

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]. أي جاءهم من الوحي ما يَجمعهم، فلما تركوه اختلفوا.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وابن أبِي شيبة (٥/ ٣٢٢) وغيرهما، وهو حسن؛ انظر: السير للذهبي (١٥/ ٥٠٩)، والفتح لابن حجر (٦/ ٩٨).

(٢) الاستقامة (١/ ٤٢) وانظر إن شئت: اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (ص: ٦).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٨)، وابن ماجه (٤٢-٤٤)، والدارمي (١/ ٤٤، ٤٥)، وهو صحيح.

وهذا مبيَّن فِي سيرة اليهود والنصارى مع رسلهم، فالنصارى اتَّبعوا رهبانية ابتدعوها وتركوا بعض ما أُمروا به فأغرى اللَّه بينهم العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

قال ابن تيمية: «فهذا نصٌّ فِي أنَّهم تركوا بعض ما أُمروا به فكان تركه سببًا لوقوع العداوة والبغضاء المحرَّمين»[١].

وكذلك اليهود تركوا بعض ما أُمروا به كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. لكن تركهم له كان ناشئًا عن تقصيرهم المعروف بسبب كراهيتهم لما أنزل اللَّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤][٢].

وقال ابن تيمية: «والخلاف الواقع فِي غير أهل الملل أكثر منه فِي أهل الملل، فكل من كان إِلَى متابعة الأنبياء أقرب كان الخلاف بينهم أقل؛ فالخلاف المنقول عن فلاسفة اليونان والهند وأمثالهم أمر لا يُحصيه إلا اللَّه، وبعده الخلاف عن أعظم الملل ابتداعًا كالرافضة فينا، وبعد ذلك الخلاف الذي بين المعتزلة ونَحوهم، وبعد ذلك خلاف الفرق المنتسبة إِلَى الجماعة، كالكلابية والكرامية والأشعرية ونَحوهم، وبعد ذلك اختلاف أهل الحديث، وهم أقل الطوائف اختلافًا فِي أصولِهم، لأن ميراثهم من النبوة أعظم من ميراث غيرهم، فعصمهم حبل اللَّه الذي اعتصموا به، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]»[٣].

ومن الدرر الغوالي لأبِي المظفر السمعاني قوله: «**ومِمَّا يدلُّ على أنَّ أهل الحديث هم على الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنَّفة من أولهم إِلَى آخرهم، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانِهم وزمانِهم وتباعد ما بينهم فِي الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتَهم فِي بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد،**

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٩).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى أيضًا (١٣/ ٢٢٧).
(٣) منهاج السنة (٦/ ٣١١).

يَجرون فيه على طريقة لا يَحيدون عنها ولا يَميلون فيها، قولُهم فِي ذلك واحدٌ ونقلُهم واحدٌ، لا ترى بينهم اختلافًا ولا تفرقًا فِي شيء ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء من قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟ قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأما إذا نظرت إلَى أهل الأهواء والبدع رأيتهم متفرِّقين مُختلفين أو شيعًا وأحزابًا؛ لا تكاد تَجد اثنين منهم على طريقة واحدة فِي الاعتقاد، يبدِّع بعضهم بعضًا، بل يرتقون إلَى التكفير؛ يكفِّر الابن أباه، والرجلُ أخاه، والجارُ جاره، تراهم أبدًا فِي تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارُهم ولَمْ تَتَّفق كلماتُهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]»[(١)].

والغرض من هذا كله بيان لحوق الهزيمة بمن خالف الرسول ﷺ وتعجيلها لَهم، بسبب الاختلاف المضروب عليهم، وقد روى ابن سعد وأحمد والبيهقي وغيرهم بأسانيد عن جمع من الصحابة دخل حديث بعضهم فِي حديث بعض، قالوا: وبعث رسول اللَّه ﷺ عبد اللَّه بن حذافة السهمي -وهو أحد الستة- إلَى كسرى يدعوه إلَى الإسلام وكتب معه كتابًا، قال عبد اللَّه: فدفعت إليه كتاب رسول اللَّه ﷺ، **ثُمَّ أخذه فمزَّقه**، فلما بلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ قال: «**اللَّهم مزِّق ملكه**»[(٢)].

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلَى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بِخبره، فبعث باذان قهرمان ورجلًا آخر، وكتب معهما كتابًا، فقدِما المدينة، فدفعا كتاب باذان إلَى النَّبِي ﷺ، فتبسم رسول اللَّه ﷺ، ودعاهما إلَى الإسلام وفرائصهما ترعد.

وفِي رواية: فلما رأى شَواربَهما مفتولة وخدودهما مَحلوقة، أشاح عنهما وقال: «**ويْحكما من أمركما بِهذا**». **قالا**: أمرنا ربنا -يعنيان: كسرى-. فقال النَّبِي ﷺ:

(١) من الحجة لقوَّام السنة (٢/ ٢٢٥).

(٢) إلَى هنا رواية البخاري فِي صحيحه (٦٤) لكن زيادة هذا الدعاء هي عنده مرسلة.

«**ولكنِّي أمرني ربِّي ﷻ أن أُعفِي لحيتِي، وأن أُحفي شاربِي وقال: ارجعا عنِّي يومكما هذا حَتَّى تأتيانِي الغد، فأخبركما بِما أريد**. فجاءاه من الغد فقال لَهما: **أبْلغا صاحبكما أن ربِّي قد قتل ربه كسرى فِي هذه الليلة**» فوجدوه كما قال[1].

وفِي هذه القصة أن النَّبِي ﷺ علم هلاك كسرى لما تَجرَّأ على رسالته، ولَمْ يُراع له حرمته؛ لأن اللَّه قضى بقطع دابر شانئ رسوله وتعجيل بتره فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. **ومن حسن الموافقة أن قاتل كسرى ابنه**، كما ذكر ذلك الحافظ فِي الفتح[2]، وهو من تمام الإعجاز فِي إلقاء العداوة بين أفراد الأمة الواحدة، كيف وهي عداوة أهل بيت واحد؟! تَحقيقًا لقول اللَّه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقارن قصة كسرى هذه بقصة قيصر الَّتِي رواها البخاري وغيره، وفيها قول قيصر لأبِي سفيان فِي رسول اللَّه ﷺ: «**. . . فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، لَمْ أكن أظن أنه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه لتجشَّمْتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه . . .**»[3].

قال ابن تيمية: «**وقد كتب النَّبِي ﷺ إلى كسرى وقيصر، وكلاهما لَمْ يُسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النَّبِي ﷺ وأكرم رسوله، فثبت ملكه، فيقال: إن الملك باق فِي ذريته إلَى اليوم، وكسرى مزَّق كتاب رسول اللَّه ﷺ**، واستهزأ برسول اللَّه ﷺ، **فقتله اللَّه بعد قليل، ومزَّق ملكه كل ممزق، ولَمْ يبق للأكاسرة ملك، وهذا -واللَّه أعلم- تحقيق لقوله تعالى**: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. **فكل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن اللَّه يقطع دابره ويَمحق عينه وأثره، وقد قيل: إنَّها نزلت فِي العاص بن وائل أو فِي عقبة بن أبِي معيط، أو فِي كعب بن الأشرف، وقد رأيت صنيع اللَّه بِهم**، ومن الكلام السائر: «**لحوم العلماء مسمومة» فكيف بلحوم الأنبياء ﷺ؟!**»[4].

---

(١) رواه ابن سعد (١/ ٢٥٩-٢٦٠)، وأحمد (٥/ ٤٣)، والبيهقي فِي دلائل النبوة (٤/ ٣٨٧-٣٩٤).
وانظر: الصحيحة للألباني (١٤٢٩)، وتَخريجه على فقه السيرة للغزالي (ص: ٣٨٨-٣٨٩).

(٢) انظر: (٧/ ٧٣٣-٧٣٤).

(٣) صحيح البخاري (٧).

(٤) الصارم المسلول (ص: ١٦٤-١٦٥)، وانظر: الفتح لابن حجر (١/ ٤٤).

قلت: تأمل قوله: «إن الملك باق فِي ذريته إلَى اليوم». مع قول هرقل بعد قراءته كتاب رسول اللَّه ﷺ فِي الرواية السابقة: «يا معشر الروم! هل لكم فِي الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النَّبِي ؟ . . » .

وقال ابن تيمية: «ونظير هذا ما حدَّثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جرَّبوه مرات متعددة فِي حصر الحصون والمدائن الَّتِي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر فِي زماننا، قالوا: كنا نَحن نَحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حَتَّى نكاد نيأس، إذ تعرَّض أهله لسب رسول اللَّه ﷺ والوقيعة فِي عرضه فعجلنا فتحه وتيسر، ولَمْ يكد يتأخر إلا يومًا أو يومين أو نحو ذلك، ثُمَّ يفتح المكان عنوة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة، قالوا: حَتَّى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه، مع امتلاء القلوب غيظًا عليهم بِما قالوه فيه، كما حدثني بعض الأصحاب الثقات أن المسلمين من أهل الغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة اللَّه أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده، وتارة بأيدي عباده المؤمنين»[1] .

وقال ابن تيمية: «**سورة الكوثر؛ ما أجلَّها من سورة! وأغزر فوائدها على اختصارها! وحقيقة معناها تُعلم من آخرها، فإنه ﷺ بتر شانئ رسوله من كل خير، فيبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك فِي الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بِها، ولا يتزود فيها صالِحًا لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهِّله لمعرفته ومَحبته والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعمله فِي طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يَجد له ناصرًا ولا عونًا، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لَها طعمًا ولا يَجد لَها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ وردَّه لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره، كمن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات، وتأوَّلها على غير مراد اللَّه ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه ومذهب طائفته، أو تَمنَّى ألا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول اللَّه ﷺ . . . ومن أقوى علامات شناءته لَها وكراهته لَها أنه إذا سمعها حين يستدل**

---

(١) الصارم المسلول (ص: ١١٧).

بِها أهلُ السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك، وحاد ونفر من ذلك، لِما فِي قلبه من البغض لَها والنفرة عنها، فأي شانئ للرسول أعظم من هذا . . . وكذا من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حَتَّى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان . . .

فالحذر الحذر! أيها الرجل من أن تكره شيئًا مِمَّا جاء به الرسول ﷺ أو تردَّه لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا؛ فإن اللَّه لَمْ يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله والأخذ بِما جاء به، بِحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله اللَّه عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنَّما يطاع تبعًا للرسول، وإلا لو أمر بِخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع.

فاعلم ذلك، واسمع وأطع، واتبع ولا تبتدع، تكن أبتر مردودًا عليك عملُك، بل لا خير فِي عمل أبتر من الاتباع، ولا خير فِي عامله، واللَّه أعلم»[(١)].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢٦-٥٢٩).



الأصل الخامس: الرد على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر



الأصل الخامس: الرد على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

احتجت إِلَى أن أُؤصِّل لبحثي بِهذا الفصل؛ لأن بعض ضعفاء النفوس وقليلي العلم تضيق صدورُهم عند مطالعة الردود، ظنًّا منهم أن ذلك أقرب إِلَى الورع وصيانة أعراض المسلمين.

وإطلالةٌ سريعة على تاريخ العلماء تُنبيك على أنه لَمْ يَخلُ عصرٌ من العصور من الردِّ على المخالف، ولو كان من خيرة المسلمين.

ولما كان جل الأحزاب الإسلامية يعمل على وَأْد ما يسمى بـ: «النقد الذاتِي»، وإجهاض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخلاء أعظم ثغور المسلمين من مرابط، بِحجّة الستر على المسلمين تارة، وجمع الكيد للكافرين تارة أخرى، وغيرها من الحجج العاطفية الَّتِي تَجعل العقول تتخطف من أصحابِها فِي زمن الوهن العلمي، كان لابد من ردِّ الحق إِلَى نصابه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

«والذين يلوُون ألسنتهم باستنكار نقد الباطل وإن كان فِي بعضهم صلاح وخير، ولكنه الوهن وضعف العزائم حينًا، وضعف إدراك مدارك الحق والصواب أحيانًا، بل فِي حقيقته من التولي يوم الزحف عن مواقع الحراسة لدين اللَّه، والذب عنه، وحينئذ يكون الساكت عن كلمة الحق كالناطق بالباطل فِي الإثم.

قال أبو علي الدقاق: «الساكت عن الحق شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق».

والنَّبِي ﷺ يُخبر بافتراق هذه الأمة إِلَى ثلاث وسبعين فرقة، والنجاة منها لفرقة واحدة على منهاج النبوة، أيريد هؤلاء اختصار الأمة إِلَى فرقة وجماعة واحدة مع قيام التمايز العقدي المضطرب؟!.

أم أنَّها دعوة إِلَى وحدة تصدِّع كلمة التوحيد؟! فاحذروا!.

وما حجتهم إلا المقولات الباطلة :

لا تصدِّعوا الصف من الدَّاخل ! .

لا تثيروا الغبار من الخارج ! .

لا تُحركوا الخلاف بين المسلمين ! .

«نلتقي فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه ! » وهكذا .

وأضعف الإيمان أن يقال لهؤلاء : هل سكت المبطلون لنسكت ، أم أنَّهم يهاجمون الاعتقاد على مرأى ومسمع ، ويُطلب السكوت؟ اللَّهم لا . . .

ونُعيذ باللَّه كل مسلم من تسرب حجة اليهود، فهم مُختلفون على الكتاب، مُخالفون للكتاب، ومع هذا يظهرون الوحدة والاجتماع، وقد كذبَهم اللَّه تعالى فقال سبحانه : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. وكان من أسباب لعنتهم ما ذكره اللَّه بقوله : ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]»[١] .

«ولِهذا فإذا رأيت من ردَّ على مُخالف فِي شذوذ فقهيّ أو قول بدعي ، فاشكر له دفاعه بقدر ما وسعه .

ولا تُخذِّله بتلك المقولة المهينة «لِمَاذا لا يردّ على العلمانيّين؟ ! » ، فالناس قدرات ومواهب، وردُّ الباطل واجب مهما كانت رتبته ، وكل مسلم على ثغر من ثغور ملته»[٢] .

وأصل هذا الباب النصوص الواردة فِي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

قال ابن تيمية : «والأمر بالسنة والنهي عن البدعة هو أمرٌ بِمعروف ونَهيٌ عن منكر ، وهو من أفضل الأعمال الصالحة . . . »[٣] .

---

(١) كتبه الشيخ بكر أبو زيد فِي الرد على المخالف من أصول الإسلام (ص: ٧٥-٧٦) .

(٢) الرد على المخالف من أصول الإسلام (ص: ٥٧) .

(٣) منهاج السنة (٥/ ٢٥٣) .

ولا ينبغي للجماعات الإسلامية اليوم أن تضيق صدورها بالنقد؛ لأنه من القيام بالقسط والشهادة للَّه اللذين أمرنا بِهما ولو مع أنفسنا وأهل ملتنا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. **واللَّيُّ: هو الكذب. والإعراض: هو الكتمان كما قال ابن تيمية**[1]. **فكيف يطيب لمؤمن دعوةٌ مع كتمان الأخطاء تسترًا بالمجاملات السياسية بعد هذا؟!**

ولا شك أن الغيرة الَّتِي أودعها اللَّه فِي قلب كلِّ مؤمن على مَحارمه هي الَّتِي تُحركه إلَى القيام بِهذا الواجب، كما قال النَّبِي ﷺ: «**إن اللَّه تعالى يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة اللَّه أن يأتِي المؤمن ما حرَّم اللَّه عليه**»[2].

وإذا كان كلما أراد المؤمن أن يقوِّم المسار قيل له: ليس ذا الوقت والكفار متربصون!.

فمتى يعرف أخطاءه؟ ومتى يُحجم عنها؟ ومتى يصحُّ المريض ويقوِّى الضعيف؟ وقد روى أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عليه ضيعته، ويَحوطه من ورائه**»[3].

وليس من الموالاة للمؤمنين فِي شيء أن تنصُر أخاك فِي باطله مُحتجًّا بِمواجهته الشيوعيين، فعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالِمًا أو مظلومًا. قيل: يا رسول اللَّه! هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالِمًا؟ قال: تَحجزه أو تمنعه من الظلم**»[4].

وفِي رواية لمسلم من طريق جابر بلفظ: «**إن كان ظالِمًا فلينهه؛ فإنه له نصر**»[5].

قال ابن تيمية فِي هذا المعنى: «ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذب عنهم أو

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٥).
(٢) رواه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).
(٣) رواه أبو داود (٢/ ٣٠٤) وهو صحيح.
(٤) رواه البخاري (٤٤٤، ٦٩٥٢).
(٥) صحيح مسلم (٢٥٨٤).

أثنى عليهم أو عظم كتبهم أو عرف بِمساعدتِهم ومعاونتهم أو كره الكلام فيهم أو أخذ يعتذر لَهم، بأن هذا الكلام لا يُدرى ما هو؟ أو من قال إنه صنف هذا الكتاب؟

وأمثال هذه المعاذير الَّتِي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تَجب عقوبة كل من عرف حالهم ولَمْ يعاون على القيام عليهم، فإنَّ القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات؛ لأنَّهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون فِي الأرض فسادًا ويصدُّون عن سبيل اللَّه»[1].

وفِي الرد على المخالف دفاع عن الإسلام من جبهتين:

«**الأولى:** الخطر الخارجي وهو الكافر المتمحِّض، الذي لَمْ يعرف نور الإسلام، بِما يكيده للإسلام والمسلمين من غزو يُحطم فِي مُقَوِّماتِهم العقدية والسلوكية والسياسية والحكمية . . .

الثانية: مواجهة التصدُّع الداخلي فِي الأمة بفشُوِّ فرق ونِحل طاف طائفها فِي أفئدة شباب الأمة . . . إذ التصدُّع الداخلي تَحت لباس الدين يُمثِّل انكسارًا فِي رأس المال: المسلمين، وقد كان للسالكين فِي ضوء الكتاب والسنة -الطائفة المنصورة- الحظ الوافر والمقام العظيم فِي جبر كسر المسلمين بردهم إلَى الكتاب والسنة، وذلك بتحطيم ما قامت عليه تلك الفرق المفرقة من مآخذ باطلة فِي ميزان الشرع»[2].

ومن ضنائن العلم ما قرأته لابن تيمية فِي التمييز بين معاملة الخوارج ومعاملة الكفار، وهو يرفع اللبس المتبادر إلَى الأذهان الكليلة من بعض الأحاديث الَّتِي يظهر منها أن الخوارج شر من الكفار مطلقًا، مع أن الصحابة لَمْ يكفروهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما زالت سيرة المسلمين على هذا، ما جعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هذا مع أمر رسول اللَّه ﷺ بقتالِهم فِي الأحاديث الصحيحة، وما رُوي من أنَّهم: «**شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتيل من قتلوه**». فِي الحديث الذي رواه أبو أمامة، رواه الترمذي وغيره[3]؛ **أي أنَّهم شرٌّ على المسلمين من غيرهم؛ فإنَّهم**

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٢).

(٢) اختصار لِمَا كتبه الشيخ بكر فِي كتابه «حكم الانتماء إلَى الأحزاب» (ص: ٥٣-٥٤).

(٣) صححه الألباني فِي تَحقيقه لسنن الترمذي برقم (٢٣٩٨)، ولعل سبب تصدير ابن تيمية له بصيغة التمريض=

لَمْ يكن أحد شرًّا على المسلمين منهم: لا اليهود ولا النصارى؛ فإنَّهم كانوا مُجتهدين فِي قتل كل مسلم لَمْ يوافقهم[١] **مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم، مكفرين لَهم، وكانوا متديّنين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة . . .»**[٢].

أي أن الخوارج أقل جريمة من الكفار فِي الميزان العام الأخير، يكفي أنَّهم «من الكفر فرُّوا»[٣]، لكن بالنسبة لما يعانِي منهم المسلمون، وما يوقعون بِهم من المحن والبلايا فهم أعظم شرًّا من الكفار، بل لا يَخلص الكفار إلَى المسلمين كما يَخلص إليهم هؤلاء، ولذلك قد تُقَدَّم عقوبتهم فِي الدنيا قبل غيرهم.

وتأمل فقه ابن تيمية حين قال بعد كلامه السابق بصفحتين: «**والعقوبة فِي الدنيا تكون لدفع ضرره عن المسلمين، وإن كان فِي الآخرة خيرًا مِمَّن لَمْ يعاقب كما يعاقب المسلم المتعدي للحدود ولا يعاقب أهل الذمة من اليهود والنصارى، والمسلم فِي الآخرة خير منهم**».

فاحفظ هذا، وعضَّ عليه بالنواجذ تتهاوى بين يديك عساكر الباطل المعطلة لمجاهدة البدع وأهلها، كأولئك القائلين: «**إن لَمْ تكونوا معنا فأنتم معهم!!**».

أو كأولئك القائلين: «توجِّهون سهامكم إلَى إخوانكم، والعلمانيون والشيوعيون أنشط ما يكونون فِي نشر الخلافات بينكم؟!».

قال ابن تيمية: «إذ تطهير سبيل اللَّه ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانِهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه اللَّه لدفع

= هو روايته له بالمعنى كما يظهر من سياقه، وهو مسلك معروف عند بعض المتقدِّمين من المحدِّثين كالبخاري فِي صحيحه، ولا يعنون به -حينئذ- تضعيف الحديث. انظر: الفتح (٢/ ٤٦، ٢٠٥).
ولفظه عند الترمذي من رواية أبِي غالب قال: رأى أبو أمامة رءوسًا منصوبة على درج دمشق، فقال أبو أمامة: «**كلاب النار، شر قتلى تَحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه**». ثُمَّ قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. إلَى آخر الآية، قلت لأبِي أمامة: أنت سمعته من رسول اللَّه ﷺ؟ قال: «لو لَمْ أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا حَتَّى عد سبعًا ما حدثتكموه». وعند ابن ماجه (١/ ٦٢) بلفظ: «**وخير قتيل من قتلوا**».

(١) أي: أنَّهم يُجهدون أنفسهم فِي قتل المسلمين كما سيأتي.

(٢) منهاج السنة (٥/ ٢٤٨).

(٣) انظر: مصنف ابن أبِي شيبة (١٥/ ٣٣٢)، وعبد الرزاق (١٠/ ١٥٠)، وصحيح ابن حبان (١٥/ ١٣٤).

ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لَمْ يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء، وقد قال النَّبِي ﷺ: «إن اللَّه لا ينظر إِلَى صوركم وأموالكم، وإنَّما ينظر إِلَى قلوبكم وأعمالكم»[1]. . . . »[2].

لماذا عُنيت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالرد على الفرق المنحرفة كالطرق الصوفية أكثر من عنايتها بالرد على الإلحاد مع وجود الاستعمار الفرنسي؟

هذه شبهة ترد كثيرًا على لسان من لَمْ يتضلَّع بِمنهج السلف يُجيب عنها الشيخ مُحمَّد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «وإنك لا تُبْعد إذا قلت: إن لفشوِّ الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة أثرًا كبيرًا فِي فشوِّ الإلحاد بين أبنائها المتعلمين تعلُّمًا أوروباويًّا الجاهلين بِحقائق دينهم، لأنَّهم يحملون من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، وأن أهلها هم حملة الدين، فإذا تقدم بِهم العلم والعقل لَمْ يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقًّا وعدلًا، وأنكروا معها الدين ظلمًا وجهلًا، وهذه إحدى جنايات الطرقية على الدِّين.

أرأيت أن القضاء على الطرقية قضاء على الإلحاد فِي بعض معانيه وحسم لبعض أسبابه؟!

وقد قرأت فِي هذه الأيام لكاتب تونسي مقالًا ينعى فيه على جَمعية العلماء إهمالها لهذه الجهة من جهات الفساد وهي الإلحاد، واعتذر عن علماء جامع الزيتونة بأنَّهم - وإن قعدوا فِي نواحي الإصلاح الَّتِي تَخب فيها جمعية العلماء وتضع- قاموا فِي حرب الإلحاد بِما شكرهم عليه، ولكنه حصر عملهم فِي هذا السبيل فِي خطب جمعية يندِدون فيها بالإلحاد ويحذرونه، وفات هذا الكاتب الفاضل أن جمعية العلماء لَمْ تسكت عن الإلحاد، بل هاجمته فِي أمنع معاقله، ونازلته فِي أضيق ميادينه، كما فاته أن صرعى

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٢).

الإلحاد لا يغشون المساجد، فما تأثير الخطب الجمعية الَّتِي تلقى على المصلين؟!.

وهل يداوى المريض بتحذير الأصحاء من المرض أو أسباب المرض؟

إلا أن العالم المرشد كالطبيب لا ينجح فِي إنقاذ المريض من الموت إلا بغشيان مواقع الموت ومباشرة جراثيم الموت»(١).

فاللَّه أكبر ما أقوى المنهج السلفي! وما أبْخَس الأحزاب لقدره!

إذن نمواجهة هؤلاء حماية لديار المسلمين من أن تُغتال من تَحتها، بِجهاد المنافقين الذين يتسللون الصفوف لواذًا، قال اللَّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

قال ابن القيم: «وكذلك جهاد المنافقين إنَّما هو بتبليغ الحجة...».

إلَى أن قال: «فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد فِي العالِم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه -وإن كانوا هم الأقلين عددًا- فهم الأعظمون عند اللَّه قدرًا...»(٢).

ولوما كان هؤلاء منضوين تحت صفوف المسلمين، فإن أمرهم قد يخفى على كثير من الناس، فكان بيان حالِهم -لمن ولاؤنا لَهم فرض علينا- آكد، ولذلك قال ابن تيمية: «وإذا كان أقوام ليسوا منافقين، ولكنهم سماعون للمنافقين، قد التبس عليهم أمرهم حَتَّى ظنوا قولهم حقًّا، وهو مُخالف للكتاب، وصاروا دعاة إلَى بدع المنافقين، كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. فلابد من بيان حال هؤلاء، بل الفتنة بِحال هؤلاء أعظم، فإن فيهم إيمانًا يوجب موالاتهم، وقد دخلوا فِي بدع من بدع المنافقين الَّتِي تفسد الدين، فلابد من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم، بل ولو لَمْ يكن قد تلقَّوْا تلك البدعة عن منافق، لكن قالوها ظانِّين أنَّها هدى، وأنَّها خير، وأنَّها دين، ولو لَمْ تكن كذلك لوجب بيان حالِهم»(٣).

(١) آثار مُحمَّد البشير الإبراهيمي (١/ ١٣٢-١٣٣).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٣).

وأما مواجهتهم من الخارج؛ فلأن العدو لا يدخل عليك بيتك إلا إذا كانت منافذه مفتوحة أو ضعيفة، والفرق الإسلامية المنحرفة عن الناجية هم منافذ الكفار، وهل يجهل المسلمون أثر المتصوفة فِي استعمار البلاد الإسلامية وإعانتهم الكفار على ذلك؟!.

وقد قال ابن تيمية فِي الشيعة الروافض: «وهم يستعينون بالكفار على المسلمين، وقد رأينا ورأى المسلمون أنه إذا ابتُلي المسلمون بعدو كافر كانوا معه على المسلمين، كما جرى لجنكزخان ملك التتر الكفار، فإن الرافضة أعانته على المسلمين.

وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لَمَّا جاء إلَى خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد، فكانوا بالعراق وخراسان من أعظم أنصاره ظاهرًا وباطنًا، وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له: ابن العلقمي منهم، فلم يزل يَمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى بقطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى عن قتالهم ويكيد أنواعًا من الكيد، حَتَّى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال: إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان أو أكثر أو أقل .... ولما انكسر المسلمون سنة غازان أخذوا الخيل والسلاح والأسرى وباعوهم للكفار النصارى بقبرص، وأخذوا من مرَّ بِهم من الجند، **وكانوا أضر على المسلمين من جميع الأعداء...**»[(١)].

قلت: ولذلك كان أئمتنا أفقه من أن يداهنوا المنحرفين عن منهج السلف، بل رأوا جهادهم أكبر الجهادين، كما قال يحيى بن يحيى شيخ البخاري ومسلم: «**الذب عن السنة أفضل من الجهاد**»[(٢)]. رواه الهرويُّ بسنده إلَى نصر بن زكريا قال: سمعت مُحمَّد بن يحيى الذهلي يقول: سمعتُ يحيى بن يحيى يقول: «**الذبُّ عن السنة أفضل من الجهاد فِي سبيل اللَّه. قال مُحمَّد: قلتُ ليحيى: الرجلُ ينفقُ ماله ويتعب نفسه ويجاهد، فهذا أفضل منه؟! قال: نعم بكثير!**»[(٣)].

وقال الحميدي شيخ البخاري: «واللَّه! لأن أغزو هؤلاء الذين يردُّون حديث

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٥٥-١٥٩)، وانظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٧٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٣).
(٣) ذم الكلام (ق ١١١-أ).

رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من أن أغزو عِدَّتَهم من الأتراك»[١]. يعني بالأتراك: الكفار.

وقد وجدتُ مثل هذا عند من هو أعلى طبقةً من الحميدي؛ قال عاصم بن شُميخ: فرأيتُ أبا سعيد -يعني: الخدري- بعدما كبر ويداه ترتعش يقول: «**قتالهم -أي: الخوارج- أجل عندي من قتال عِدَّتِهم من الترك**»[٢].

قلت: ولذلك قال ابن هبيرة فِي حديث أبِي سعيد فِي قتال الخوارج: «**وفِي الحديث أن قتال الخوارج أولى من قتال المشركين؛ والحكمة فيه أن قتالهم حفظ رأس مال الإسلام، وفِي قتال أهل الشرك طلب الربح؛ وحفظ رأس المال أولى**»[٣].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «**المتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من الضرب بالسيوف فِي سبيل الله**»[٤].

---

(١) رواه الهرويُّ بسنده في ذم الكلام (٢٢٨-الشبل).

(٢) رواه ابن أبِي شيبة (١٥/ ٣٠٣)، وأحمد (٣/ ٣٣)، هكذا وقع عنده: عاصم بن شميخ بالخاء وهو الصحيح، وقد رواه ابنه عبد الله فِي كتاب السنة (٢/ ٦٣٥) بإسناد أبيه نفسه إلا أنه جاء فِي المطبوع بتحقيق مُحمَّد بن سعيد القحطاني: عاصم بن شميج بالجيم، وقد كنت حسبته خطأ مطبعيًّا لولا أنِّي وجدته مُثبتًا كذلك مرتين! قال مُحققه فِي أولاهما (٢/ ٦٣٤): «عاصم بن شميج! بمعجمتين مصغرًا وتشديد الجيم!! الغيلاني التقريب (١/ ٣٨٤)!!!». فرجعت إلَى التقريب فإذا فيه: «عاصم بن شميخ بمعجمتين مصغرًا، أبو الفرجَّل بفتح الفاء والراء وتشديد الجيم . . .». فعرفت أن هذا الخطأ من تصرف المحقق حين انقلبت عليه خاء اسم أبِي عاصم إلَى جيم كنيته، مع أن قراءة شميج بجيم مشددة متعذِّرة!

وهذه الرواية أعلها المحقق بعكرمة بن عمار، إلا أنني وجدت لَها متابعًا عند ابن أبِي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٣١) من طريق يزيد بن هارون قال: أخبرنا العوام بن حوشب قال: حدثني من سمع أبا سعيد الخدري ﷺ يقول فِي قتال الخوارج: «لهو أحب إلي من قتال الديلم». ومثل هذه المتابعة تنفع على الرغم من جهالة من روى عنه العوام بن حوشب، كما أجابنِي به شيخاي الفاضلان: عبد المحسن العباد، وربيع المدخلي إذا لَمْ يكن فِي الإسناد مقال آخر، ولاسيما وأن المجهول من أهل القرون المشهود لَها بالخيرية كما نبه عليه ابن كثير فِي الباعث الحثيث (ص: ٩٧) مع العلم أنه ممن ثبت سماعه من أبِي سعيد -كما مر- وليس هو عاصم بن شميخ الذي فِي إسناد أحمد؛ لأنه ليس فِي شيوخ العوام، وحديث عكرمة ينجبر؛ لأن ضعفه يسير، فقد قال فيه الحافظ فِي التقريب رقم (٢٧٦): «صدوق يغلط» والله أعلم.

فائدة: نقل ابن منظور فِي لسان العرب فِي مادة: «دلم» عن ابن سيده أن الديلم جيل من الناس من الترك.

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٢/ ٣٠١).

(٤) رواه الخطيب فِي تاريخ بغداد (١٢/ ٤١٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٩/ ٧٩).

وقال ابن القيم: «**والجهاد بالحجة واللسان مقدَّم على الجهاد بالسيف والسنان**»(١).

استعمال الشدة في الإنكار على المبتدعة لا يعني الولاء للكفار

إن الأصل فِي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللين والرفق كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال لموسى وهارون -صلى اللَّه عليهما وسلم-: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

وعن عائشة زوج النَّبِي ﷺ عن النَّبِي ﷺ قال: «**إن الرِّفق لا يكون فِي شيء إلا زانه، ولا يُنْزع من شيء إلا شانه**»(٢).

لكن إذا كان المنكر لا يغيَّر إلا بنوع من الخشونة فلا بأس باستعماله، ولو كان مع المسلمين، ألا ترى أن اللَّه أباح القتال لذلك، وليس فوق القتال خشونة، فقال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد يشتد المؤمن فِي إنكاره على أخيه أكثر منه مع عدوه، ألَم تر كيف لان موسى ﷺ مع فرعون، واشتد على أخيه هارون ﷺ، حَتَّى كان منه ما قصه اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. **فهل لأحد أن يَحتج عليه بالولاء والبراء، متهمًا له بأنه يبسط لسانه ويده على أخيه ويلطف بالطواغيت؟!**

بل ربَّما كان النَّبِي ﷺ يُعنِّف العلماء من أصحابه إذا أخطئوا أكثر من غيرهم، وخذ على سبيل المثال قوله لمعاذ حين أطال الصلاة بالناس: «**أفتان أنت يا معاذ؟!**»(٣).

---

(١) شرح القصيدة النونية للشيخ مُحمَّد خليل هراس (١/ ١٢)، وانظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٢٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٣) رواه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥).

ويقابله تلطفه بالأعرابِي الذي بال فِي المسجد كما فِي صحيح البخاري وغيره[١].

وقال لأسامة بن زيد حين قتل فِي المعركة مشركًا بعد أن نطق بكلمة التوحيد: **«يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا اللَّه؟!. قال أسامة: فما زال يكررها حَتَّى تمنيت أنِّي لَمْ أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»**[٢].

وقد استفاد أسامة من هذا التعنيف فِي النصح أيام الفتنة الَّتِي كانت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، فأورثه تورُّعًا عن دماء المسلمين.

قال الذهبِي رحمه الله: **«انتفع أسامة من يوم النَّبِي ﷺ، إذ يقول له: «كيف بلا إله إلا اللَّه يا أسامة؟!» فكفَّ يده، ولزم بيته، فأحسن»**[٣].

قلت: اللَّه أكبر! ما أعظم التربية النبوية! وما أحقر التربية الحزبية! الَّتِي من يوم أن حرَّمت أصل (الرد على المخالف) وأبناؤها لا يتورَّعون عن دماء المسلمين، اتَّخذوها هدرًا باسم الجهاد، ولا تكاد تقوم فتنة إلا وهم وقودها أو موقدوها.

هذه نتيجة مداهنة بعضهم بعضًا لوهْم الاشتغال بالكفار!! ولذلك قال ابن تيمية: **«المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نَحمد معه ذلك التخشين»**[٤].

إذن فهذا اللين الذي تستعمله كثير من الجماعات الإسلامية مع أفراد أو جَماعات من حمقى المتهوِّرين -الذين كثيرًا ما يتسببون فِي استعداء الأعداء على المسلمين- ليس من الولاء فِي شيء؛ لأنه يزيدهم إغراقًا فِي ضلالِهم لعدم شعورهم بعظم الجناية.

ثُمَّ إن الشدة المسلوكة مع المسلمين أحيانًا، باعثها الغيرة عليهم من أن يُرَوا ملطخين بشيء من القاذورات، والسعي فِي تَمتين الصف وصد خروقه حَتَّى لا يؤتى من قبله، فليُعلم.

---

(١) البخاري (٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٣) السير (٢/ ٥٠٠-٥٠١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٣-٥٤).

ولِهذا قال العلامة عبد العزيز بن باز تحت عنوان: «الأدلة الكاشفة لأخطاء بعض الكُتاب»:

«ولا شك أن الشريعة الإسلامية الكاملة جاءت بالتحذير من الغلو فِي الدين، وأمرت بالدعوة إلَى سبيل الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ولكنها لَمْ تُهمل جانب الغلظة والشدة فِي مَحلها حيث لا ينفع اللين والجدال بالتي هي أحسن؛ كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. الآية.

أما إذا لَمْ ينفع واستمر صاحب الظلم أو الكفر أو الفسق فِي عمله ولَمْ يبال بالواعظ والناصح، فإن الواجب الأخذ على يديه ومعاملته بالشدة وإجراء ما يستحقه من إقامة حد أو تعزير أو تَهديد أو توبيخ حَتَّى يقف عند حده وينزجر عن باطله»[1].

مع أن الذي يظهر من مجاملات الأحزاب الإسلامية لأهل البدع والسكوت عن أخطائهم هو أنَّهم لما حصروا طريق عودة عز المسلمين فِي صندوق الانتخابات تذمَّروا من النقد، لأنه ربَّما أتلف لَهم الأصوات، وهكذا السيئة تتبعها أخوات.

هذا ومن أجل أن اللَّه فرض علينا قَدَرًا وجود المخالف -الذي يُحسب على الإسلام- سلكنا **طريق التصفية**؛ لأن اللَّه فرض علينا شرعًا الرد عليه، كما بيَّنته فِي هذا الأصل.

ومن أجل أن اللَّه كتب الرفعة لأهل العلم والتعليم -كما بيَّنته فِي الأصلين اللذين قبل هذا- سلكنا طريق التربية، وشرحه يأتي فِي الورقات الآتية.

* * *

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوّعة للشيخ عبد العزيز بن باز (٣/ ٢٠٢-٢٠٣).



الأصل السادس:
التصفية والتربية



الأصل السادس: التصفيـة والتـربيـة

إذا تبيَّنا أن رفعة الأمة مرهونة بالعلم والعمل، وأن الأمة قد اختلفت فيهما اختلافًا كثيرًا، وأنه قد علق بالإسلام ما ليس منه، وأنه لا سبيل إِلَى التخلص من الذل المضروب علينا من قرون إلا بالرجوع إِلَى الدين الصحيح، كما روى ابن عمر عن النَّبِي ﷺ أنه قال: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط اللَّه عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حَتَّى ترجعوا إِلَى دينكم**»[1]. وجب المسارعة إِلَى تَحقيق ما يرفع عنا الذل، وهو الرجوع إِلَى صفاء الوحيين: الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح الذين هم أهل القرون الثلاثة الأولى.

وإذ قد امتدت يد التحريف إِلَى صفاء الإسلام حَتَّى لوَّثته، وإِلَى جَماله حَتَّى شوَّهته، كانت تصفيته من كل دخيل من أوجب الواجبات، ما دام الحق الذي بعث اللَّه به نبيه ﷺ مضمون البقاء إِلَى يوم تبدل الأرض والسموات، بضمان اللَّه القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وإذا دبَّ التحريف إِلَى قوم، وشحَّت مناهجهم عن التصفية، أصابتهم حيرة لا يفرقون معها بين حلال وحرام، كما روى مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم فِي خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم مِمَّا علَّمنِي يومي هذا: كل مالٍ نَحلتُه عبدًا حلالٌ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لَهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لَمْ أنزل به سلطانًا، وإن اللَّه نظر إِلَى أهل الأرض فمقتهم: عربَهم وعجمَهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[2].

ولما كانت الجاهلية على هذا الوصف الذي فِي الحديث، بعث اللَّه نبيه مُحمَّدًا ﷺ مُخلِّصًا لَها دينها من الشوائب، ومربيًا لَها على الإسلام الذي ارتضاه لَها ربُّها، وعلى

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٢)، وهو صحيح: انظر الصحيحة للألباني رقم (١١).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

قاعدة «التصفية والتربية» وإن شئت قل: «التخلية والتحلية». قامت دعوة الإسلام.

ففي التوحيد لا يتربى المرء عليه سليمًا حَتَّى يتخلص من رواسب الشرك، ولذلك قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفِي التشريع لا يتربَّى المرء عليه سليمًا حَتَّى يتخلَّص من البدع، ولذلك كان النَّبِي ﷺ فِي كل خطبة جمعة يأمر بلزوم الدين الصحيح المتمثل فِي الكتاب والسنة ويُحذر مِمَّا يغشُّه ويُكدِّر صفاءه وهو البدع؛ فقد روى مسلم عن جابر قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش، يقول: «**صبحكم ومساكم**».

ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**». ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي مُحمَّد، وشر الأمور مُحدثاتُها، وكل بدعة ضلالة**»[1]. وتكراره لهذه الجملة دليل تأصيلها وشد العناية إليها.

وخلاصة هذه القاعدة: «**أنَّها تعني تصفية الإسلام من كل دخيل، وتربية الناس على هذا الإسلام الأصيل؛ أي: تصفية التوحيد من الشرك، والسنة من البدعة، والفقه من الآراء الحادثة المرجوحة، والأخلاق من سلوك الأمم الهالكة المقبوحة، والأحاديث النبوية الصحيحة من الأحاديث المكذوبة المفضوحة . . . وهكذا**»[2].

تطبيق:

اجتمع الشيخ مُحمَّد ناصر الدين الألباني بأحد قادة الأحزاب الإسلامية، وكان الشيخ على دراية دقيقة بِحوادثهم، وبلغه أن مؤيِّديهم يُعَدُّون بالملايين.

فكان مِمَّا سأله عنه ما أُثبتُه هنا اختصارًا أن قال له الشيخ: «أكُلُّ الذين معك يعرفون أن اللَّه مستوٍ على عرشه؟».

---

(١) صحيح مسلم (٨٦٧).

(٢) من أراد بسطًا فِي الموضوع فليرجع إلَى كتاب التصفية والتربية لأخينا علي بن حسن بن عبد الحميد فِي طبعته الجديدة لعام (١٤١٥).

وبعد أخذ وردٍّ، وتَهرّب وصد، قال المسئول: نرجو ذلك!

قال له الشيخ: «دَعْك من الجواب السياسي!»، فأجابه بالنفي.

فقال الشيخ: «يكفيني منك هذا!»[1].

هذا السؤال تفرضه قاعدة التصفية والتربية الَّتِي هي أدق ميزان تعرف به الدعوات الجهادية اليوم؛ لأن من عجز عن تصفية عقائد مؤيِّديه ومُحبيه وتربيتهم على العقيدة السليمة، يكون أعجز عن تصفية ثمراتِها فِي أخلاقهم وسائر أعمالهم، وفيهم مبغضوه ومُحاربوه، فكيف بتربيتهم بعد ذلك والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؟!.

ثُمَّ الجهاد نفسه لا يكون إلا بأمة مؤتلفة القلوب؛ لأن الائتلاف رافد النصر كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

والقلوب إن لَمْ تجتمع على العقيدة السلفية كان أصحابُها فِي شقاق لا يَجبره اجتماعهم فِي صناديق الاقتراع، قال الله ﷻ مُخاطبًا أصحاب النَّبي ﷺ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

ومهما تكن عليه الغثائية السياسية من تَجميع، فإن بداية أمر عقيدتِها إلَى تَمييع، ونِهاية تَجميعها إلَى تفرق وتبديع؛ لأن اجتماع الأبدان لن يكون إلَّا مؤقَّتًا، إذا كان عقد القلوب مشتَّتًا، ولَمْ أجد لهؤلاء أصدق وصف من قول الله تعالى فِي اليهود: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

وجماع الأمر: أن الله وعد بالاستخلاف الحسن من عبده وحده بلا إشراك فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. ولا يَجوز أن يدفع فِي صدر هذا النص بضرب الأمثال التاريخية على نقضه؛ لأن المسلم وقاف عند النص، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

---

(١) شريط مسجل من سلسلة الهدى والنور رقم (٤٧٥/ ١) و(٤٧٦/ ١).

وأما تَحديد الشيخ سؤاله فِي مسألة الاستواء؛ فلأنَّها مفترق الطرق بين أهل السنة وأصحاب الأهواء، ولأنَّها العقيدةُ السهلة الَّتِي كان يعرفها مجتمع النَّبِي ﷺ الذي فتح الدنيا وقاد الأمم، حَتَّى الجواري من رعاة الغنم.

وامتحان الشيخ بِها ذلك الحزب السياسي الزاعم أنه مكتمل فِي دينه وعلى مستوى جاهلية وقته، هذا الامتحان مسلك سلفي، وإن رغم أنف كل خَلَفي؛ فقد روى مسلم وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي قال: «كانت لي غنم بين أُحد والجوانية فيها جارية لي، فاطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة، وأنا رجل من بني آدم، فأسفت، فصككتها، فأتيت النَّبِي ﷺ فذكرت ذلك له، فعظم ذلك عليَّ، فقلت: يا رسول اللَّه! أفلا أعتقها؟ قال: **ادعها**. فدعوتُها فقال لَها: **أين اللَّه؟** قالت: فِي السماء. قال: **من أنا؟** قالت: أنت رسول اللَّه. قال: **أعتقها؛ فإنَّها مؤمنة**»[1].

فتأمل -يرحَمك اللَّه- هذا المجتمع الذي كان يُجاهد به النَّبِي ﷺ؛ اكتمل فِي عقيدته حَتَّى عند رعاة الغنم الذين تقلُّ صحبتهم للنبي ﷺ كهذه الجارية!

وتأمل حقيقة المجتمعات الإسلامية اليوم الَّتِي يُطمع تسلُّق عرش الحكم بِها، لتدركِ البون الشاسع بين جهاد أولئك وجهاد هؤلاء.

فهل استطاعت الدعوات الجهادية أن تَجمع الأتباع -فضلًا عن الرِّعاع- على «أين اللَّه؟».

أم هو سؤال أضحى أُضحوكةً تتندَّر بِها الأحزاب فِي زمن تأثير الحضارات، ومحل سخرية عند منظِّري الجماعات؟

أم أنَّهم فهموا ضرورة الحكم بِما أنزل اللَّه ولو أنَّهم ضيَّعوا اللَّه؟!

فمتى يأذن اللَّه بعتق رقابِهم ممن استذلوهم، كما عتقت الجارية بعد أن عرفت اللَّه؟
﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

لكن حقيقة هذا السؤال هي استخراج حقيقة الدعوات، وتبيّن مدى خلوص النيات؛ لأن فِي الاهتمام بالحكم بالشريعة، وفِي الاهتمام بِمسألة الاستواء اهتمامًا

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٤٧)، ومسلم (٥٣٧).

بِحق اللَّه تعالى، لكن بين الأولى والثانية فرق، وهو أن للعبد فِي الأولى حظًّا لنفسه، وهو ما يتكرر على الألسن من استرجاع المظالم واستيفاء الحقوق، والعيش الرغد الموعود به حقًّا فِي قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. أي: أن حظ العبد خالط حقَّ الرب.

وأما الاهتمام بصفة الاستواء للَّه فهو اهتمام بِحق اللَّه الخالص، ليس للداعي إليها أدنى نصيب من حظ نفسه.

فتأمل هذا الفرق تدرك عزة الإخلاص؛ **لأن الدندنة حول قضية الحكم بِما أنزل اللَّه، مع إهمال قضايا صفات الرب الخالصة أو تأخيرها أو تَهميشها -وهي أشرف ما أنزله اللَّه؛ إذ شرف العلم بشرف المعلوم كما سبق- لأكبر دليل على أن فِي الأمر شائبة،** تؤكد ضرورة الرجوع إلَى دعوة الأنبياء الذين قالوا لقومهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. فقدَّموا الاهتمام بشرك القبور على الاهتمام بشرك القصور -إن صح هذا التعبير-، لِهذا لَمْ تكن الإمامة من أصول الإيمان فتدبَّر![1].

* * *

(١) لابن تيمية كلام نفيس فِي ذلك فِي منهاج السنة (١/ ١٠٦-١١٠) فراجعه، وفِي قتال الولاة من أجل الدنيا والتباسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فِي (٥/ ١٥٢)، ومثله عنه فِي العقود الدرية لابن عبد الهادي (ص١٤٧).



الخاتمة

هذا، وأسأل اللَّه تعالى أن يشرح صدور المسلمين عامة، ودعاتِهم خاصة لاقتفاء أثر سلفهم الصالح فِي العمل بِهذه الأصول الستة؛ لأنه لا مَجال للوصول إلَى خير الدنيا والآخرة إلَّا باتباعها، كما أنه لا مَجال لتخطِّيها إلَى غيرها؛ لأنَّها ركائز بنى عليها من تقدَّمَنا دينهم فقام لَهم بُنيانُهم، واشتدَّ عودهم، وقويت شوكتهم، وذلك من توفيق اللَّه لَهم، لَمَّا رأى قلوبَهم منطوية على الصدق والإخلاص، وبِها حفظوا لنا هذا الدِّين نقيًّا صافيًا كأنَّه أُنزل اليوم.

وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول: «لا يُصلح آخر هذا الأمر إلَّا ما أصلح أولَه». وقد تقدم، وصدق أصدق القائلين سبحانه إذ يقول: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

والحمد للَّه أولًا وآخرًا. . . .

* * *



الفهارس



فهرس الآيات القرآنية

* * *



فهرس الأحاديث النبوية

الحديث — الصفحة

* * *



فهـرس الآثار

* * *



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

* * *

سِتُّ دُرَرٍ

مِنْ أُصُولِ أَهْلِ الأَثَرِ

